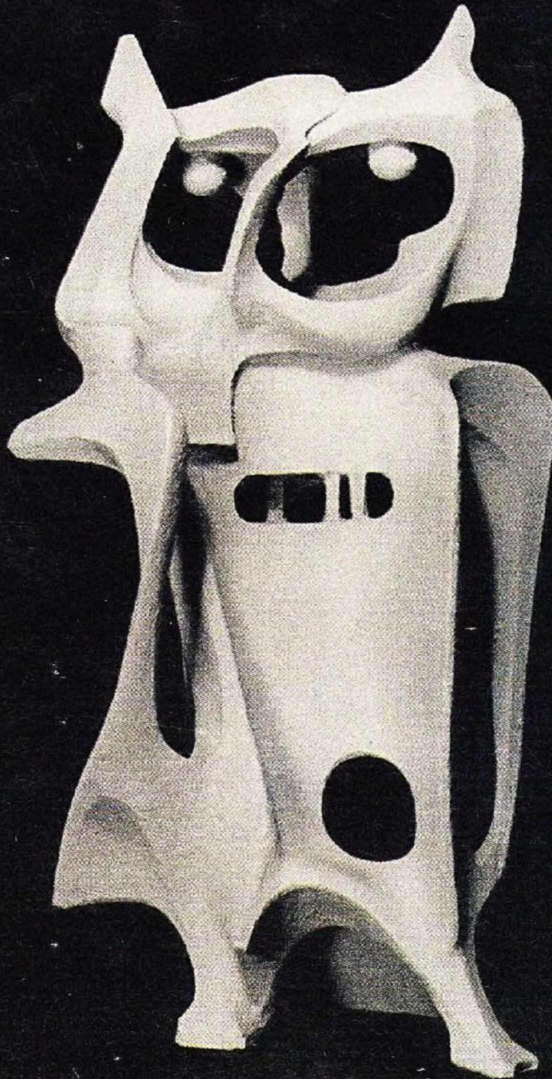


سلسلة الفكر

روح الإرهاب

تأليف جان بودريار

ترجمة بدر الدين عرودكي

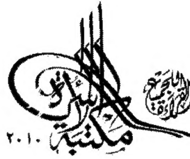




الهيئة المصرية العامة للكتاب

علي مولا
ابن خلدون

روح الإرهاب



المشرف العام
د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف
د . مدحت متولى

الإشراف الفنى
ماجدة عبد العليم
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

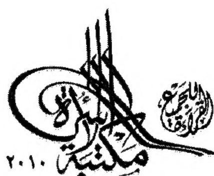
التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

روح الإرهاب

تأليف جان بودريار

ترجمة بدر الدين عرودكي



روح الإرهاب

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : عبدالهادى الوشاحى

بودريار، جان .

روح الإرهاب/ تأليف: جان بوديار؛ ترجمة: بدر الدين عمر زكى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

١٠٤ ص ؛ ٢٠ سم . (سلسلة الفكر - أسرة).

تدمك: ٥ - ٤٩٧ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ ـ الإرهاب

٢ - عمرو زكى، بدر الدين (مترجم)

أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٩٠٧/ ٢٠١٠

I.S.B.N 978-977-421-497 -5

ديوى ٣٦٤,١٣١

▪ فهرس ▪

تقديم

بعد شهر ونيف من حدث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، نشر جان بودريار في صحيفة اللوموند مقاله ***روح الإرهاب***. وكان المقال من الأصالة في تحليل ما حدث في ذلك اليوم ومن الجدة في الرؤية وفي التفسير بحيث أنني شعرت واجبًا عليّ أن أقدمه لقراء العربية ممن لم يتح لهم أن يقرؤوه بالفرنسية أو ممن لا يقرأون الفرنسية أصلاً. وهكذا وبعد شهر من نشره في اللوموند بتاريخ ٣ نوفمبر ٢٠٠١، نشرت مجلة ***أخبار الأدب*** في القاهرة و***الفكر العربي المعاصر*** في بيروت وصحيفة ***القدس*** في لندن وفي وقت واحد تقريباً ترجمتي لهذا المقال الذي أثار حواراً ونقاشاً عاصفين في الأوساط الثقافية والسياسية الفرنسية. وسرعان ما أصدرت منشورات جاليله المقال في كتاب، ثم مالبث بودريار أن ألحقه بكتاب يضم ثلاث مقالات يحمل عنوان **السلطة الجهنمية**، ويتابع فيه بودريار تأملاته حول نتائج ١١ سبتمبر ومعانيه، ثم كانت في بداية عام ٢٠٠٣ شهور إعداد الرأي العام العالمي لحرب الخليج الثانية ولاحتلال العراق، الأمر الذي حدا ببودريار إلي أن يكتب مقالة قناع الحرب الذي

يفند فيه المزاعم الدعائية الأمريكية ويكشف عما يعتبره الدوافع الحقيقية لحرب لا تجرؤ حتى على إعلان هدفها الحقيقي: محاولة غسل عار الإهانة التي ألحقت بالقوة العظمى الوحيدة في العالم وعلى أرضها. ثم جاءت فضيحة السجون العراقية وخصوصًا سجن أبو غريب لتؤكد التحليل الذي قدمه بودريار في مقالته السابقة، وهو ما حمله على كتابة ***بورنوجرافيا الحرب***، لا استطرادًا بل متابعة لتحليله في ***قناع الحرب***.

هذه الوحدة في الموضوع (١١ سبتمبر) والتماسك في التحليل وفي المنهج وفي الرؤية على تباعد تاريخ نشر مختلف المقالات المذكورة، هو ما حملنا على ترجمتها ونشرها معًا ضمن كتاب واحد، ومع موافقة المؤلف.

ليس الهدف من هذا التقديم سوى بيان الدافع إلى ترجمة ونشر هذه الدراسات المهمة حول حدثٍ دمغ بداية القرن الحادي والعشرين بلا أي جدال. سوى أن القارئ سيلاحظ أن المؤلف الفرنسي يرد، على غير علم منه، على كثير من الفرضيات التي ساقها عدد من المفكرين وكبار الصحافيين العرب بعيْدَ ١١ سبتمبر، ونترك له أمر استخلاص المعاني.

بدرالدين عرودكي

٦

روح الإرهاب

من الأحداث عرفنا الكثير، سواء العالمية، من موت ديانا إلى بطولة العالم فى كرة القدم، أو العنيفة والواقعية من حروب ومذابح. لكننا لم نعرف على الإطلاق حدثًا رمزيًا ذا دوى عالمى، أى حدث لا ينطوى على شهرة عالمية فحسب، بل يضع العولمة ذاتها موضع الفشل. وعلى امتداد ركود التسعينيات هذا عشنا "إضراب الأحداث" (حسب تعبير الكاتب الأرجنتينى ماسيدونيو فرنانديز **Macedonio Fernandez**) لكن الإضراب انتهى. لقد كفت الأحداث عن إضرابها. لا بل هانحن نواجه مع انفجارات نيويورك والمركز العالمى للتجارة الحدث المطلق، "أمّ" الأحداث، الحدث المحض الذى يُرَكِّزُ فى ذاته كل الأحداث التى لم تحدث من قبل على الإطلاق.

وبفعله انقلبت لعبة التاريخ والقوة رأسًا على عقب، مثلما انقلبت شروط التحليل. ولابد من التمهل إذ مادامت الأحداث راكدة فمن الواجب استباقها وسبقها. وحين تسرع إلى هذا الحد فمن الواجب السير

بهدوء. هذا دون الغرق تحت ركام الخطابات وغيوم الحرب، ومع المحافظة على لمعان الصور الذى لا يُنسى.

كل الخطابات والتعليقات تفضح زوالاً هائلاً للعقد إزاء الحدث ذاته وإزاء السحر الذى يمارسه. أما الإدانة الأخلاقية والاتحاد المقدس ضد الإرهاب فهما على مستوى الابتهاج الخارق أمام رؤية دمار هذه القوة العظمى، بل أفضل من ذلك، رؤيتها وهى تدمر نفسها بنفسها، وهى تنتحر على نحو رائع. لأنها هى التى أوقدت بقوتها التى لا تطاق كل هذا العنف المنتشر فى العالم وبالتالى هذه المخيلة الإرهابية التى تسكننا جميعًا (دون أن نعرف).

وحقيقة أن نكون قد حلمنا بهذا الحدث، وأن يكون كل الناس دون استثناء قد حلم به لأنه لا يمكن لأحد ألا يحلم بتدمير أية قوة صارت على هذه الدرجة من الهيمنة، ذلك أمر غير مقبول فى نظر الضمير الأخلاقى الغربى، لكنه مع ذلك أمر واقع يتساوى على وجه الدقة مع عنف كل الخطابات المثيرة للشفقة التى تريد أن تمحوه.

وبمعنى ما هُمُ الذين فعلوه، لكننا نحن الذين أردناه. وإن لم نأخذ هذا بعين الاعتبار يفقد الحدث كل بعد رمزى ويصير مجرد حادث، مجرد فعل تعسفى، مجرد هلوسة قتالة لعددٍ من المتعصبين الذين يكفى آنئذ القضاء عليهم . سوى أننا نعلم حق العلم أن الأمور ليست على هذا النحو. ومن هنا هذا الهذيان المضاد للخوف لطرد الشر: ذلك لأن الشرّ

هنا، في كل مكان، شأنه شأن موضوع رغبة غامض. بدون هذا التواطؤ العميق، لا يمكن للحدث أن يكتسب هذا الدويّ الذي عرفه، ولا شك أنّ الإرهابيين يعرفون، ضمن استراتيجيتهم الرمزية، أنهم يستطيعون الاعتماد على هذا التواطؤ المضمر.

يتجاوز ذلك تجاوزا كبيراً كراهية القوة العالمية المسيطرة لدى المحرومين والمستغلين، لدى أولئك الذين وقعوا في الجانب السيئ من النظام العالمي. هذه الرغبة الماكرة هي في قلب الذين يتقاسمون ثمراته نفسه. إن الحساسية إزاء كل نظام نهائي، إزاء كل قوة نهائية، هي لحسن الحظ عامة، ولقد كان برجا المركز العالمي للتجارة يجسِّدان تمام التجسيد - في توأمتهما على وجه الدقة - هذا النظام النهائي.

لا حاجة لغريزة موت أو تدمير، ولا حتى لتأثير فاسد. إذ بصورة منطقية جداً وبصورة حتمية، يستثير تضخمُ القوة الإرادةَ لتدميرها. شريكة في تدمير ذاتها. عندما انهار البرجان تولّد الانطباع أنهما نجيبان لانتحار الطائرتين الانتحاريتين بانتحارهما الخاص بهما. وقيل: "حتى الإله لا يستطيع إعلان الحرب على نفسه." بلى، إنه يستطيع. فالغرب في وضع الإله (كل القوة الإلهية والشرعية الأخلاقية المطلقة) صار انتحارياً وأعلن الحرب على نفسه.

تشهد أفلام الكوارث العديدة على هذه الهلوسة التي تطردها بالطبع بواسطة الصورة من خلال استخدامها الخدع السينمائية. لكن

الجاذبية العامة التى تمارسها شأن الأفلام البورنوجرافية، تبيّن أن الانتقال إلى الفعل قريب دومًا، باعتبار أن ذبذبة الإنكار لدى كل نظام تزداد قوةً بقدر ما تقترب من الكمال أو من القوة المطلقة.

من المحتمل فوق ذلك أن الإرهابيين (هذا فضلاً عن الخبراء) لم يتوقعوا انهيار البرجين، وهو انهيارٌ أَلّفَ، أكثر من البنتاجون، الصدمة الرمزية الأقوى. إن الانهيار الرمزى لنظام بأكمله قد تمّ بفعل تواطؤ غير متوقع، كما لو أنهما بانهيارهما من ذاتهما، بانتحارهما، دخلا فى اللعبة لإتمام الحدث.

وبمعنى ما، فإنّ النظام بأكمله، بفعل هشاشته الداخلية، يساعد الفعل الأساسى بقوة. وبقدر ما يتركز النظام عالميًا دون أن يشكل على الأقل سوى شبكة واحدة بقدر ما يصير هشًا فى نقطة واحدة (فقد سبق لمعلوماتى عادى واحد من الفيليبين أن نجح بدءًا من حاسوبه المحمول فى إطلاق فيروس "أى لافيو **I love you** الذى طاف أرجاء العالم مخربًا شبكات معلوماتية بأكملها). هنا، ثمانية عشر كاميكازًا أثاروا بفضل سلاح الموت المطلق الذى تَضَاعَفَ بالفعالية التكنولوچية، عمليةَ كارثةٍ شاملة.

عندما يكون الوضع محتكرًا على هذا النحو من قبل قوة عالمية، عندما نواجه هذا التكثيف المذهل لكل الوظائف من قبل الآلية التكنولوچية والفكر الواحد، فما هو الطريق الآخر المتاح سوى طريق

التحويل الإرهابى للوضع؟ إنه النظام ذاته الذى أوجد الشروط الموضوعية لهذا الإجراء المعاكس العنيف. فهو إذ جمع الأوراق بأكملها بين يديه يُرغِمُ الآخرَ على تغيير قواعد اللعبة. والقواعد الجديدة شرسة لأن الرهان شرس. فعلى نظام تطرحُ طفرةُ قوته ذاتها مشكلةَ تحدٍ لا يمكن حلّها يجيب الإرهابيون بفعلٍ مطلقٍ يستحيل استبداله هو الآخر. إن الإرهاب هو الفعل الذى يعيد خصوصية يتعذر تبسيطها إلى قلب نظام تبادل معمم. كل الخصوصيات (الأنواع ، الأفراد ، الثقافات) التى دفعت بموتها ثمن إقامة نظام سير عالمى تديره قوة واحدة ينتقم اليوم بهذا التحويل الإرهابى للوضع.

إرهاب ضد إرهاب ـ ليس هناك أيديولوچية وراء كل هذا. ذلك أننا صرنا من الآن فصاعداً فيما وراء الأيديولوچية أو السياسة. فالطاقة التى يغذيها الإرهاب لا يمكن لأى قضية حتى لو كانت إسلامية أن تفسّرها. إنه لم يعد يستهدف حتى تغيير العالم، بل يتطلع (ك... البدع فى زمنها) إلى تجذيره بواسطة التضحية، فى حين أن النظام يستهدف تحقيقه بالقوة.

إن الإرهاب كالفيروس، فى كل مكان. هناك انتشار عالمى للإرهاب الذى بات - شأن الظلِّ الملازم لكل نظام هيمنة - مستعداً فى كل مكان لأن يستيقظ كعميل مزدوج، لم يعد هناك أية حدود فاصلة تسمح بمحاصرته، فهو فى قلب هذه الثقافة التى تحاربه. والكسر المرئى (والكراهية) الذى يضع على الصعيد العالمى المستَغَلين والمتخلفين فى

مواجهة العالم الغربي ينضم سرياً إلى الكسر الداخلي ضمن النظام المهيمن. يَسَعُ هذا الأخير أن يواجه كل خصومة مرئية. لكن الآخر ذو بنية فيروسية -كما لو أن كل جهاز مهيمن يفرز خصمه وخميرة تلاشيه- ولا يستطيع النظام شيئًا ضد هذا الشكل من الارتداد شبه الآلي لقوته الخاصة به. والإرهاب هو التيار الصاعق لهذا الارتداد الصامت.

ليس ذلك إذن صدمة حضارات ولا صدمة أديان، كما أنه يتجاوز الإسلام وأمريكا اللذين نحاول تركيز الصراع بينهما كي ما نمنح أنفسنا وهمَ صراعٍ مرئي وحلٍّ يتم بالقوة. إنها فعلاً خصومة أساسية، لكنها تشير عبر شبح أمريكا (التي ربما هي المركز الأساسي لكنها ليست تجسيد العولمة لوحدها) وعبر شبح الإسلام (الذي هو الآخر ليس تجسيد الإرهاب)، إلى العولمة المنتصرة في صراعها مع ذاتها.

بهذا المعنى، يسعنا الحديث عن حرب عالمية، ليست هي الثالثة بل الرابعة والوحيدة التي تستحق فعلاً صفة العالمية، مادام موضوعها العولمة ذاتها. كانت الحربان العالميتان الأوليان تستجيبان لصورة الحرب الكلاسيكية، فالأولى وضعت حداً لسيطرة أوروبا وللعصر الاستعماري، أما الثانية فقد أنهت النازية، في حين أن الثالثة التي قامت فعلاً في صورة حرب باردة وحرب ردع قد وضعت حداً للشيوعية. ومن حربٍ إلى أخرى كنا نتقدم كل مرّة خطوة إضافية في اتجاه النظام العالمي الوحيد. واليوم يجد هذا الأخير نفسه، وقد بلغ نهايته بالقوة، في صراع مع القوى المتخاصمة والمنتشرة في كل مكان في قلب العالمي ذاته ، في كل

الاضطرابات الراهنة. حربٌ طاحنة لكل الخلايا، لكل الخصوصيات التى تتمرد في صورة أجسام ضدّية، مجابهات بلغت فى امتناعها على الإدراك مستوىً توجب معه من وقت لآخر إنقاذ فكرة الحرب من خلال مسرحيات صارخة شأن حرب الخليج أو حرب أفغانستان اليوم. لكن الحرب العالمية الرابعة تقوم فى مكانٍ آخر. إنها الحرب التى تلازم كلّ نظام عالمى، كل سيطرة مهيمنة - ولو كان الإسلام يسيطر على العالم لوقف الإرهاب ضد الإسلام. ذلك لأن العالم نفسه هو الذى يقاوم العولمة.

الإرهاب لا أخلاقى. وحدث المركز العالمى للتجارة، هذا التحدى الرمزى، لا أخلاقى، ويرد على عولمة هى الأخرى لا أخلاقية. إذن فلنكن نحن أنفسنا لا أخلاقيين، وإذا أردنا أن نفهم شيئًا ما فى هذا المجال فلنذهب لنرى ما يمكن أن يُرى فيما وراء الخير والشر. ولنحاول - وقد أتيح لنا أن نعيش حدثًا لا يتحدى الأخلاق فحسب بل كل شكل من أشكال التأويل - أن نمتلك ذكاء الشر. فالنقطة الأساسية هى هنا على وجه الدقة: فى الاتجاه المعاكس تمامًا للفلسفة الغربية، فلسفة عصر التنوير، فيما يخص العلاقة بين الخير والشر. إننا نعتقد بسذاجة أن تقدم الخير وازدياد قوته فى كل المجالات(العلوم، التقنيات، الديمقراطية حقوق الإنسان) يتطابق وهزيمة الشر. لا أحد يبدو قد فهم أن الخير والشر يزدادان قوة فى ذات الوقت وبنفس الإيقاع، وأنّ انتصار أحدهما لا يؤدى إلى انمحاء الآخر، بل على العكس تماما. فنحن نعتبر الشر ميتافيزيقيًا كما لو أنه خطأ عارضٌ، لكن هذه الأولية التى نجمت

عنها أشكال الصراع الثنائى كلّها كصراع الخير ضد الشر، أولية وهمية. فالخير لا يقلص الشر، كما أن الشر لا يقلص الخير: إنهما فى آن واحد متلازمان كما أن علاقتهما معقدة. والحق أن الخير لا يمكن له أن يهزم الشر إلا بكفّه عن أن يكون الخير، إذ بامتلاكه وحده الاحتكار العالمى للقوة، يؤدى بفعل ذلك إلى ارتداد اللهب بالمستوى ذاته من العنف.

فى العالم التقليدى، كان هناك أيضًا توازن بين الخير والشر، وفق علاقة جدلية تؤمّن بأى ثمن حيوية وتوازن العالم الأخلاقى - تقريباً كما كان الأمر فى الحرب الباردة حيث كانت المواجهة بين القوتين العظميين تؤمّن توازن الرعب. ومن ثم لا وجود لسيطرة قوة على الأخرى. انقطع هذا التوازن اعتباراً من اللحظة التى تواجد فيها استقطاب كامل للخير (هيمنة الإيجابى على أى شكل من أشكال السلبية باستثناء الموت، وعلى كل قوة معادية محتملة - انتصار قيم الخير على الدوام). انطلاقا من ذلك، انقطع التوازن وذلك كما لو أن الشر كان يستعيد استقلالاً غير مرئى، متطوراً من الآن فصاعداً بطريقة أسّية.

ومع مراعاة النسب بالطبع، يمكن القول إن هذا ما حدث تقريبًا فى النظام السياسى مع انمحاء الشيوعية والانتصار العالمى للقوة الليبرالية: آنئذ انبثق عدوّ شبحى، منتشراً فى كل أنحاء العالم، متسللاً من كل مكان كالفيروس، منبثقًا من كل فجوات القوة. الإسلام. لكن الإسلام ليس إلا الجبهة المتحركة لتبلور هذا العداء. هذا العداء يتواجد

فى كل مكان، وهو موجود فى أعماق كل منا. إذن رعب ضدّ رعب لكنه رعب غير متماثل. وعدم التماثل هذا هو الذى يجعل القوة العالمية الكبرى مجردةً كليًا من السلاح. ولما كانت فى مواجهة مع نفسها فإنه لا يسعها إلا أن تغرق فى منطقها الخاص بعلاقات القوى، دون أن تتمكن من اللعب على أرض التحدى الرمزى والموت، وهى الأرض التى لم تعد تملك عنها أية فكرة مادامت قد شطبتها من ثقافتها الخاصة بها.

حتى الآن، نجحت هذه القوة الجامعة على نحو واسع فى امتصاص وابتلاع كل أزمة، وكل سلبية، خالقةً بذلك وضعاً مثيراً لليأس للغاية (لا للمعذبين فى الأرض فحسب، بل وكذلك للأغنياء والموسرين أيضًا فى رخائهم العميق). والحدث الأساسى يتمثل فى أن الإرهابيين قد كفوا عن الانتحار انتحاراً يتجلّى محض خسارة، ذلك أنهم يضعون موتهم فى الرهان بطريقة هجومية وفعالة، وحسب حدس استراتيجى هو بكل بساطة الحدس بهشاشة الخصم الهائلة، هشاشة نظام وصل إلى شبه الكمال، ومن ثم فقد صار فجأة حسّاسًا لأقل شرارة. لقد نجحوا فى أن يجعلوا من موتهم سلاحًا مطلقًا ضد نظام يعيش على استبعاد الموت، ويقوم مثله الأعلى على عدد صفر من الموتى. كل نظام يقوم على عدد صفر من الموتى نظام ذو حاصل معدوم. وكل وسائل الترهيب والتدمير لا تستطيع شيئًا ضد عدوّ جعل من موته سلاح هجوم مضاد. "لا أهمية للقصف الأمريكى ! فرجالنا يتمنون الموت بقدر ما يتمنى الأمريكيون الحياة!"، ومن هنا اختلال التوازن بين

السبعة آلاف من الموتى الذى أُنزل بضربة واحدة وبين نظام يقوم على عدد صفر من الموتى.

هكذا إذن، كل شىء هنا، يقوم على الموت، لا بالهجوم العنيف للموت أمام أعيننا فحسب، ولدى وقوعه، وإنما بهجوم موت أكثر من مجرد موت واقعى: موت رمزى وقربانى - أى الحدث المطلق والقطعى.

هى ذى روح الإرهاب

ألاّ تهاجمَ النظامَ أبداً بمفردات علاقات القوى. ذلك، هو الخيال (الثورى) الذى يفرضه النظام ذاته، النظام الذى لا يستمر فى الحياة إلا بإرغام الذين يهاجمونه على الدوام للقتال على أرض الواقع التى هى أرضه على الدوام- ولكن نقل الصراع إلى المجال الرمزى حيث القاعدة هى قاعدة التحدى، والارتداد، والمزاودة. كما هو الأمر فى مواجهة الموت حيث لا يمكن الرد إلا بموت مساوٍ أو متفوق. أى تحدّى النظامَ بعطاءٍ لا يستطيع الردَّ عليه إلا بموته الخاص وبانهياره الخاص .

الفرضية الإرهابية، ذلك أن النظام نفسه ينتحر رداً على التحديات المتعددة للموت وللانتحار. لأنه لا النظام ولا السلطة يستطيعان الإفلات من الواجب الرمزى - وعلى هذا الفخ يعتمد الحظ الوحيد لكارثتهم. فى هذه الدائرة المدوخة من التبادل المستحيل للموت، يؤلف موت الإرهابى نقطة فى منتهى الصغر، لكنها تستثير تطلعاً، وخواءً، وارتفاع حرارة هائل. ومن حول هذه النقطة المتناهية فى الصغر،

فـإن كل النظام، نظام الواقع والقـوة، يتكثف، ويتـقلص، وينكمش على نفسه ويتحطم فى فعاليته العليا الخاصة به.

إن تكتيك النموذج الإرهابى يتمثل فى استثارة طفرة من الواقع وجـعل النظام ينهار تحـتـها. كل سخرية الوضع وفى الوقت ذاته عنف السلطة المسـتنفـر يرتدّان ضـده، لأن الأعـمـال الإرهـابية هـى – فى آن واحـد– المرآة المفرطة لعنفـه الخـاص ونموذج عنف رمـزى مـحـرّم عليـه، العنف الوحيد الذى لا يستطيع ممارسته: عنف موته الخاص.

ولذلك فإن كل القوة المرئية لا تستطيع شيئًا ضدّ الموت الزهيد لكنه الرمزى لبعض الأفراد.

علينا أن ننتبـه إلى أن إرهابًا جـديداً قـد ولد، شكل من الفـعل الجديد الذى يمارس اللعبة ويستـحـوذ على قـواعدها كى يتمكن من التشـويش عليـها. لم يقـتـصـر الأمـر على أنّ هؤلاء الناس لا يناضلون بأسلحـة متكافئة مادامـوا يراهنون على مـوتهم الذى لا يجـد ردًّا ممكنًا ("إنهم جبناء")، وإنما استـحـوذوا على كافة أسلحة القوة المهيمنة. المال والمضـاربات فى البـورصـة، التـقنيـات المعلومـاتيـة وتقنيـات الطيـران، ضـخـامـة الحدث والشبكات الإعلامية: لقد تمثلوا كل شىء فى الحداثة وفى العولمة، دون تغيير فى الهدف الذى يقوم على تدميرها.

وزيادة فى الحيلة، فقد استخدموا شئون الحياة اليومية الأمريكية المبتذلة كغطاء وكلعبة مزدوجة. ينامون فى الضـواحى، يقرءون ويدرسون

فى أجـواء عـائليـة قـبل أن يسـتـيـقظوا ذات يوم كـقنابل مـوقـوتة. إن السـيطرة التى لا تشـوبهـا شـائبـة على هذه السـرّية هى إرهابيـة بقدر التفجيرات المذهلة يوم ١١ أيلول / سبتمبر. ذلك لأنها باتت تثير الشك فى أى فرد: ألم يصـبح أى إنسـان مـسالم إرهابيًـا بالقوة؟ إذا تمكن هؤلاء من أن يعيشوا دون أن يفطن إليهم أحد، فإن كل واحد منا إذن مجرم لا يفطن إليه أحد(وكل طائرة صارت هى الأخرى مشتبهة)، وربما كان ذلك فى الحقيقة صحيحًا. وربما يتطابق ذلك مع شكلٍ لا واعٍ من الإجرام المحتمل، مقنع ومكبوت بعناية، لكنه قادر دومًا إن لم يكن على الانبثاق فعلى الأقل على التـأثر سريا أمـام حدث الشـر. وهكذا يتـفرع الحدث حتى فى التفاصيل – مصدر إرهاب ذهنى آخر أشدّ براعة.

يكمن الاختلاف الجذرى فى أن الإرهابيين مع امتلاكهم الأسلحة التى هى أسلحة النظام يمتلكون فضلاً عن ذلك سلاحًا حاسمًا: موتهم. ولو أنّهم اكتفوا بمقاتلة النظام بأسلحته الخاصة به لقضى عليهم على الفـور. ولو أنّهم لم يواجـهونه إلا بموتـهم لتلاشـوا بسـرعة مماثلة فى تضحية غير مجدية – وهو ما قام به الإرهاب على الدوام تقريبًا حتّى اليوم (شأن الاغتيالات الانتحارية الفلسطينية) وبسببه كان محكومًا عليه بالفشل.

كل شىء يتغير ما إن استخدموا جميع الوسائل الحديثة المتاحة مع هذا السلاح الرمزى بامتياز. فهذا الأخير يضاعف الطاقة المدمّرة إلى ما لانهاية. هذا التعدد فى العوامل (الذى يبدو لنا نحن عسير

التحقيق) هو ما يعطيهم مثل هذا التفوق. في حين أن استراتيجية عدد صفر من الموتى بالمقابل، استراتيجية الحرب "النظيفة"، والتقنية، لا تنتبه على وجه الدقة إلى هذا التغيّر الذى طرأ على القوّة "الحقيقية" بفعل القوة الرمزية.

إن النجاح المذهل لمثل هذا الاعتداء يؤلف مشكلة، ولكى نفهم شيئًا ما علينا أن نتخلص من طريقتنا الغربية فى النظر لنرى ماذا يجرى فى تنظيم وفى رءوس الإرهابيين. مثل هذه الفعالية تفترض لدينا حداً أقصى من الحسابات، ومن العقلانية، يصعب علينا تخيل وجودها لدى الآخرين. وحتى فى هذه الحالة، فسوف يكون هناك دومًا – كما هو الأمر فى أى منظمة عقلانية أو دائرة مخابرات سرية – تسريب معلومات أو أخطاء.

إذن، إنّ سرّ مثل هذا النجاح يقوم فى مكان آخر. والفرق يتمثل فى أنّ الأمر لديهم ليس عقد عمل بل عهد وواجب تضحية. مثل هذا الواجب فى ملجأ من أى تخاذل أو أى إفساد. وتتمثل المعجزة فى التكيّف مع الشبكة العالمية، ومع التقنيات دون فقدان شىء من هذه العلاقة الحميمة مع الحياة والموت. وعلى العكس من العقد، لا يربط العهد أفرادًا، فحتى "انتحارهم" لا يعتبر بطولة فردية، بل هو فعل قربانى جماعى رسّخه مطلب مثالى. وكان الجمع بين أمرين: البنية التنفيذية والعهد الرمزى، هو ما جعل مثل هذا العمل الخارق ممكنًا.

لم يعد لدينا أية فكرة عما هو الحساب الرمزى، شأن لعبة البوكر: أقل ما يمكن من الرهان وأكثر ما يمكن من النتائج. وهو تمامًا ما حصل عليه الإرهابيون فى اعتداء مانهاتن، الذى كان يبين على نحو جيد نظرية الفوضى: صدمة أساسية تثير نتائج يستحيل حسابها، فى حين أن الانتشار الهائل للأمريكيين ("عاصفة الصحراء") لم يحقق سوى نتائج زهيدة – الإعصار وقد انتهى إن صح القول فى خفق جناحى فراشة.

كان الإرهاب الانتحارى إرهاب الفقراء، أما هذا الإرهاب فهو إرهاب الأغنياء. وهذا ما يخيفنا على وجه الخصوص: ذلك أنهم أصبحوا أغنياء (فلديهم كل الوسائل) دون أن يكفوا عن إرادة القضاء علينا. حقًا إنهم، حسب سلّم قيمنا، يغشّون: فليس من اللعب فى شىء أن يراهن المرء على موته. سوى أنهم غير معنيين بذلك فضلاً عن أن قواعد اللعبة لم تعد ملكنا.

كل شىء صالحٌ للحطّ من قيمة أفعالهم. مثل نعتهم بوصفهم "انتحاريين" و"شهداء"، كى يضاف بعد ذلك على الفور أن الشهيد لا يبرهن على شىء، وأنّه لا علاقة له مع الحقيقة، بل إنه أيضًا (مع الاستشهاد بنيتشه) عدوّ الحقيقة رقم واحد. حقًا، لا يبرهن موتهم على شىء، ولكن ليس هناك ما يُبَرْهَنُ عليه فى نظام الحقيقةُ فيه عسيرة على الإدراك – أم أننا نحن الذين نزعم حيازتها؟ ومن جهة أخرى، فإن هذه الحجة الأخلاقية بامتياز لا تلبث أن تنعكس. إذا لم يكن الاستشهاد

الإرادى للكاميكاز يبرهن على شىء، فإن الاستشهاد غير الإرادى لضحايا الاعتداء لا يبرهن هو الآخر أيضًا على شىء، وفى استخدام هؤلاء الضحايا حجةً شىء من الوقاحة والدعارة (وهذا لا يستبق الحكم فى شىء على آلامهم وموتهم).

حجة أخرى صادرة عن نيّة سيئة: فهؤلاء الإرهابيون يبادلون موتهم مقابل مكان فى الجنة. إن فعلهم ليس مجانيًا إذن ومن ثم فهو ليس أصيلاً. ولن يكون مجانيا إلا إذا لم يكونوا مؤمنين بالله، إلا إذا كان الموت بلا أمل، كما هو فى نظرنا(مع أن الشهداء المسيحيين لم يكونوا يأملون شيئًا آخر سوى هذا المعادل الرفيع). إذن، هنا أيضًا، لا يقاتلون بأسلحة متكافئة مادام يحق لهم الخلاص الذى لا يسعنا حتى مجرد الأمل به . هكذا نعلن الحزن على موتنا فى حين يسعهم هم أن يجعلوا منه رهانًا شديد الوضوح.

وفى الأساس، كلّ ذلك ـ القضية، والبرهان، والحقيقة، والثواب، والغاية والوسائل - شكلٌ من الحساب محض غربى. حتى الموت، فإننا نقدره بنسب الفائدة، وبمفردات العلاقة بين الجودة والسعر. هذا الحساب الاقتصادى هو حساب الفقراء والذين لم يعودوا يملكون حتى شجاعة دفع الثمن .

ماذا يمكن أن يحصل - فيما عدا الحرب التى ليست فى حدّ ذاتها إلا شاشة حماية تقليدية؟ يتحدّثون عن الإرهاب البيولوجى، أو عن

الحرب الجرثومية، أو عن الإرهاب النووى. لكن شيئًا من هذا لا يعتبر من نمط التحدى الرمزى، وإنما من الإبادة دون كلمة، دون فخر، دون خطر، ومن نمط الحلّ النهائى . إلا أن من الخطأ أن نرى فى الفعل الإرهابى منطقًا محض تدميرى. يبدو لى أن فعلهم، الذى لا ينفصل عنه موتهم (وهذا بالضبط ما يجعل منه فعلاً رمزيًا)، لا يستهدف الاستبعاد اللاشخصى للآخر. كل شىء فى التحدى وفى المبارزة، أى أيضًا فى علاقة مبارزة، شخصية، مع القوة العدوة. فهى التى أذلّتكَ، وهى التى يجب أن يتم إذلالها. لا مجرد استئصالها . يجب جعلها تفقد ماء وجهها . ولا يمكن الحصول على ذلك أبدًا بالقوة أو بالقضاء على الآخر. فهذا الأخير يجب أن يستهدف ويمزق فى قلب الخصومة. وفيما عدا العهد الذى يربط الإرهابيين فيما بينهم، هناك شىء ما يشبه عهد مبارزة مع الخصم. إنه إذن وعلى وجه الدقة عكس الجبن الذى اتهموا به، وهو كذلك وعلى وجه الدقة عكس ما فعله مثلاً الأمريكيونْ فى حرب الخليج (وما يكررون فعله اليوم فى أفغانستان) : هدف غير مرئى، وتصفية عملياتية.

من كل هذه الطوارئ نحتفظ قبل كل شىء برؤية الصور. وعلينا أن نحتفظ بوقع الصور هذا وبسحرها لأنها شئنا أم أبينا هى مشهدنا البدائى. ولقد كان من شأن أحداث نيويورك أنها فى الوقت الذى جذرت فيه الوضع العالمى جذرت علاقة الصورة بالواقع. وفى حين كنا نواجه بلا انقطاع وفرة من الصور العادية وشلالاً لا يتوقف من الأحداث

المصطنعة فإن العمل الإرهابي في نيويورك يعيد بعث الصورة والحدث في آن واحد .

من بين أسلحة النظام التي وجهوها ضده، استغلّ الإرهابيون الزمن الحقيقي للصور ولبثّها العالمي الفوري. فقد استملكوها مثلما استملكوا المضاربة في البورصة والإعلام الإلكتروني وخط سير الطائرات. إن دور الصور شديد الغموض. إذ في الوقت الذي تمجّد فيه الحدث تجعل منه أسيراً. إنّها تقوم بدورها في آن واحد بوصفها تكاثراً حتى اللانهاية وبوصفها تحويلاً وتحييداً (هكذا كان الأمر أثناء أحداث أيار / مايو ١٩٦٨). وهو ما ننساه دومًا عندما نتحدث عن "خطر" وسائل الإعلام الجماهيرية. تستهلك الصورةُ الحدثَ، بمعنى أنّها تمتصّه وتدفع به بعد ذلك للاستهلاك. حقًا إنّها تعطيه تأثيراً لم يعرفه حتى الآن، ولكن بوصفه حدثًا ـ صورة .

ما وضع الحدث الحقيقي إذن إذا ما كانت الصورة والخيال والفرضي في كلّ مكان يتوفرون بكثرة في الواقع؟ في الحالة الراهنة ظننا أننا نرى (ربما مع شيء من الارتياح) انبعاثًا للواقع ولعنف الواقع في عالم فرضي مزعوم. " هيا! لقد انتهت حكاياتكم عن الفرضي – ما ترونه، هو الحقيقي !". كذلك ، أمكن لنا أن نرى فيه انبعاثًا للتاريخ فيما وراء نهايته المعلنة. ولكن هل يتجاوز الواقع الخيال حقًا؟ إذا بدا أنّه يتجاوزه فعلاً فلأنّه امتصّ طاقته ولأنّه صار هو ذاته خيالاً. لا بل إنّ

بوسعنا القول تقريبًا إنّ الواقع غيور من الخيال... إنّها ضرب من المبارزة بينهما: من يصير أكثر استعصاء على التصوّر.

إنّ انهيار برجي مركز التجارة العالمي عصيٌّ على التصور، لكن ذلك لا يكفي ليجعل منه حدثًا حقيقيًا. إن الزيادة في العنف لا تكفي للتفتح على الواقع. لأنّ الواقع مبدأ، وهذا المبدأ هو الذي ضاع. الواقع والخيال معقّدان، وسحر التفجير هو أولاً سحر الصورة (فالنتائج التي هي في آن واحد مثيرة للابتهاج وللشعور بالكارثة هي في ذاتها خيالية على نحو واسع).

في هذه الحالة إذن، ينضاف الحقيقي على الصورة كعلاوة إرهاب، كقشعريرة إضافية. إذ لا يكفي أنّه رهيب بل هو فوق ذلك حقيقي. وبدلاً من أن يكون عنف الواقع هنا أولاً ثمّ تنضاف إليه قشعريرة الصورة، فإنّ الصورة هي هنا أولاً ثمّ تنضاف إليها قشعريرة الواقع. شئ ما كما لو أنّه خيال إضافي، خيال يتجاوز الخيال. كان بالارد Ballard بعد بورجس Borges يتحدث على هذا النحو عن إعادة ابتكار الواقع بوصفه أقصى وأشدّ ضروب الخيال هولاً.

هذا العنف الإرهابي ليس هو إذن عودة شعلة الواقع، ولا عودة شعلة التاريخ. هذا العنف الإرهابي ليس "حقيقيًا". إنّه أسوأ من ذلك، بمعنى: إنّه رمزي. فالعنف في حد ذاته يمكن أن يكون عاديًا ومسالمًا على نحو تام. وحده العنف الرمزي يولّد التميّز. وفي هذا الحدث الفريد،

فى فيلم الكارثة هذا فى مانهاتن يقترن على أعلى مستوى عنصرا السحر الجماهيرى فى القرن العشرين: سحر السينما الأبيض، وسحر الإرهاب الأسود.

ونحاول بعد لأى أن نفرض عليه أىّ معنى، أن نعثر له على أىّ تفسير. سوى أنّه لا معنى له ولا تفسير، وإنما هى جذرية المشهد، وفظاظته التى هى وحدها جديدة ولدودة. إن مشهد الإرهاب يفرض إرهاب المشهد. وضد هذا الافتتان اللاأخلاقى (حتى ولو استثار رد فعل أخلاقى عام) لا يستطيع النظام السياسى شيئًا. إنّه مسرح القسوة الخاص بنا، الوحيد الذى بقى لنا ـ الخارق بمعنى أنّه يجمع أعلى نقطة فى الذهل وأعلى نقطة فى التحدى. إنّه فى الوقت ذاته النموذج المصغر الساطع لنواة عنف حقيقى مع حد أقصى من الصدى ـ وبالتالى أشدّ أشكال الذهل نقاء ـ ونموذج قربانى يقابل النظامَ التاريخىَّ والسياسىَّ بأشد أشكال التحدى الرمزية نقاءً.

أىّ معجزة يمكن أن تُغفَر لهم لو كان لها معنى، لو أمكن تفسيرها بوصفها عنفًا تاريخيًا ـ هى ذى القاعدة الأخلاقية للعنف الجيّد. أىّ عنف يمكن أن يُغفَرَ لهم لو لم تعلن عنه وسائل الإعلام الجماهيرى ("لم يكن للإرهاب وجود لولا وسائل الإعلام الجماهيرية"). سوى أنّ كلّ هذا وهمى. ليس هناك استخدام جيّد لوسائل الإعلام، فوسائل الإعلام تؤلف جزءًا من الحدث، إنّها تؤلف جزءًا من الرعب، وهى تقوم بدورها فى هذا الاتجاه أو ذاك.

إنّ الفعل القمعي سوف يسير فى نفس اللولب غير المتوقع الذى يسير فيه الفعل الإرهابى، ولا أحد يعرف أين سيتوقف، وما الانقلابات التى ستعقبه. لا وجود لتمييز ممكن على صعيد الصورة والإعلام بين المذهل والرمزى، لا وجود لتمييز ممكن بين "الجريمة" والقمع. وهذا التدفق العصىّ على السيطرة لقابلية الانقلاب هذه هو الانتصار الحقيقى للإرهاب. انتصار مرئىّ فى التفرعات والتسلل الخفى للحدث ـ لا فى الركود المباشر الاقتصادى والسياسى والمالى وفى البورصة لمجمل النظام وفى الانحسار الأخلاقى والسيكولوچى الذى ينتج عنه، وإنّما فى انحسار نظام قيم أيديولوچية الحرية، وحرية التنقل... إلخ، الذى يؤلف مفخرة العالم الغربى والذى يعتمد عليه ليمارس سيطرته على بقية العالم.

إلى حدّ أن فكرة الحرية وهى فكرة جديدة ومتأخرة، فى طريقها إلى الانمحاء من الأخلاق والضمائر، وأن العولمة الليبرالية فى طريقها إلى التحقق فى شكل معاكس على نحو الدقة : شكل عولمة بوليسية، وشكل رقابة شاملة، ورعب أمنى. إنّ الاختلال ينتهى فى حد أقصى من الضغوط وضروب التقييد معادلاً لذلك الموجود فى مجتمع أصولى.

تراجع فى الإنتاج، وفى الاستهلاك، وفى المضاربة، وفى النمو (لا فى الفساد على وجه اليقين!). كل شئ يجرى كما لو أنّ النظام العالمى يقوم بتراجع استراتيچى، بإعادة نظر مؤلمة فى قيمه ـ كرد فعل دفاعى فيما يبدو على صدمة الإرهاب، لكنها تستجيب فى الأساس لأوامره

السريّة ـ انتظام إجبارى ناشئ عن فوضى مطلقة، لكنّه يفرضها على نفسه، مستبطنًا بمعنى ما هزيمته الخاصة به.

هناك مظهر آخر لانتصار الإرهابيين، وهو أنّ كل أشكال العنف والتشويش الأخرى على النظام تلعب لصالحه: فالإرهاب المعلوماتى، والإرهاب البيولوچى، وإرهاب الجمرة الخبيثة والإشاعة، كلّه يحال إلى بن لادن. لا بل إنّ بوسعه أن يضيف الكوارث الطبيعية إلى إنجازاته. كل أشكال الاختلال والتنقلات المشبوهة تفيده. بل إنّ بنية التبادل العالمى المعمم ذاتها تلعب لصالح التبادل المستحيل. ويبدو الأمر وكأنّه كتابةٌ آليةٌ للإرهاب يعيد تغذيتَها باستمرار إرهابُ الإعلام غير المقصود. مع كل النتائج المرعبة التى تنتج عنها: إذا كان التسميم فى قصة الجمرة الخبيثة هذه يخاطر بذاته من خلال تبلور متزامن، شأن تبلور محلول كيميائى بمجرد مسّه ذرّة ما، فلأنّ كل النظام قد بلغ حجمًا حرجًا يجعله حسّاسًا لأىّ اعتداء.

ليس هناك حلّ لهذا الوضع الأقصى، ولاسيما الحرب التى لا تقدم إلا وضعًا سبقت رؤيته، مع نفس الطوفان من القوى العسكرية، والإعلام الشبحى، والتكرار غير المفيد، والخطابات الماكرة والمثيرة للشفقة، وانتشار تكنولوچى وتسميمى. وبإيجاز، شأننا فى حرب الخليج، لا ـ حدث ، حدث لم يحدث حقًا.

ذلك هو من ثم سبب وجوده: إحلال حدث مزيّف مكرر سبقت رؤيته محل الحدث الحقيقى والرائع والفريد وغير المنتظر. إنّ الاعتداء

الإرهابى يتطابق مع أسبقية الحدث على كل نماذج التفسير، فى حين أنّ هذه الحرب العسكرية والتكنولوچية على نحو أحمق تتطابق على العكس مع أسبقية النموذج على الحدث، وبالتالى مع رهان مصطنع، ومع شىء لم يحدث. الحرب بوصفها امتداداً لغياب السياسة بوسائل أخرى.

2

السلطة الجهنمية

أ قداسٌ

جنائزى للبرجين

لماذا البرجان توين توارز Twin Towers(*) أولاً ؟ لماذا البرجان التوأم فى مركز التجارة العالمى؟

كل الأبنية الكبرى فى مانهاتان كانت حتى ذلك الحين تتواجه فى عمودية تنافسية، كان ينتج عنها البانوراما الشهيرة للمدينة. تغيّرت هذه الصورة فى عام ١٩٧٣ مع بناء مركز التجارة العالمى. وانتقلت صورة النظام من المسلة والأهرام إلى البطاقة المثقوبة وإلى الحرف الإحصائى. هذا التعبير الفنى المعمارى يجسّد نظامًا لم يعد تنافسيًا بل رقميًا وحسابيًا، حيث تتلاشى المنافسة لصالح الشبكات والاحتكار.

وحقيقة أن يكونا أثنين يعنى ضياع كل مرجعية أصلية. لو لم يكونا إلا واحداً لما تجسّد الاحتكار على نحو تام. وحدها تثنية الدلالة تضع نهاية حقًا لما تدل عليه. وهناك افتتان خاص فى هذا الازدواج. وأيًا كان ارتفاعهما، يعنى البرجان مع ذلك وقفًا للعمودية. إنهما ليسا من

(*) بالإنجليزية فى النص، وكذلك مركز التجارة العالمى (هـ. م.)

جنس الأبنية الأخرى ذاته، إنهما يبلغان الأوج فى انعكاس دقيق لكل منهما فى الآخر.

إن أبنية مركز روكفلر كانت لا تزال تتمرأى واجهاتها من الزجاج والفولاذ فى انعكاس للمدينة لا نهاية له. أما البرجان فلم يشتملا على واجهة ولا على وجه. وفى نفس الوقت الذى يختفى فيه خطاب العمودية يختفى خطاب المرآة. مع هذين العمودين المتوازنين تماماً والأعميين، لم يبق إلا ضربٌ من علبة سوداء، سلسلة مغلقة على الزوج، كما لو أن المعمار، على صورة النظام، لم يعد يعمل إلا من خلال الاستنساخ ومن رمز وراثى لا يتغير.

نيويورك هى المدينة الوحيدة فى العالم التى ترسم على هذا النحو على امتداد تاريخها، وبإخلاص معجز، الشكل الراهن للنظام ولكل تقلباته. يجب أن نفترض إذن أن انهيار البرجين - حدث هو ذاته فريد فى تاريخ المدن الحديثة - يستبق النهاية الدرامية لهذا الشكل من المعمار وللنظام الذى يجسّده. كانا فى مجرّد تصميمهما المعلوماتى والمالى والحسابى والرقمى، دماغَهُ. ويضربهما هنا، مسّ الإرهابيون إذن المركز العصبى للنظام. إن عنف العالمى يمرّ أيضاً بالمعمار، بالهلع من العيش والعمل فى هذه التوابيت من الزجاج والفولاذ والإسمنت. الهلع من الموت فيها لا يمكن فصله عن الهلع من العيش فيها. ولذلك فإن الاعتراض على هذا العنف يمرّ أيضاً بهدم هذا المعمار.

هذه الوحوش المعمارية أثارت على الدوام افتتانًا غامضًا، شكلاً متناقضًا من الجاذبية والاستنكار ومن ثم، فى مكان ما، رغبةً سرّيةً فى رؤيتها تختفى. فى حالة البرجين، ينضاف إليها هذا التناسق الكامل وهذه التوأمية التى هى حقًا ميزة جمالية لكنها على وجه الخصوص جريمة ضد الشكل، تحصيل حاصل الشكل، يجذبُ محاولة تحطيمه. إن هدمهما ذاته قد احترم هذا التناسق: صدمتان لا يفصل بينهما إلا دقائق معدودات - تعليق يسعه أن يحمل على الاعتقاد بمجرد حادث طارئ، هنا أيضًا التأثير الثانى الذى يوقّعُ الفعلَ الإرهابى .

إن انهيار البرجين هو الحدث الرمزى الأكبر. تصوروا لو أنهما لم ينهارا، أو لو أنّ واحداً منهما قد انهار فقط: لم يكن الأثر ليكون هو نفسه الحاصل من انهيارهما معًا على الإطلاق. والبرهان الساطع على هشاشة القوة العالمية لم يكن ليكون هو ذاته. إن البرجين اللذين كانا علامة هذه القوة، مازالا يجسّدانها فى نهايتهما الدرامية التى تشبه الانتحار. وبرؤيتهما ينهاران من نفسيهما، كما لو أنهما ينهاران بفعل انفجار داخلى، كان لدينا الشعور بأنهما كانا ينتحران جوابًا على انتحار الطائرتين الانتحاريتين.

وبما أنهما فى آن واحد موضوع معمارى وموضوع رمزى، فمن الواضح أن الموضوع الرمزى هو الذى استهدف، وبوسعنا الظن بأن تحطيمهما المادى هو الذى أدى إلى انهيارهما الرمزى. إلا أن الأمر هو العكس: إنه العدوان الرمزى الذى أدى إلى انهيارهما المادى، كما لو أن

القوة التى كانت تحمل حتى الآن هذين البرجين قد فقدت فجأة كل عزمها. كما لو أن هذه القوة المتكبرة كانت تخور فجأة تحت تأثير جهد شديد الكثافة: جهد إرادة أن يكون النموذج الفريد للعالم. أما وقد تعبا من كونهما هذا الرمز الثقيل على الحمل. فقد رزحا هذه المرة مادياً، لقد رزحا عمودياً، وقد خارت قواهما، أمام العيون المنبهرة للعالم أجمع.

وإنه لمنطقى جداً أن يهيّج تفاقمُ قوة القوة إرادةَ تدميرها. لكن هناك ما هو أكثر من ذلك: فهى فى مكان ما شريكة فى تدميرها الذاتى. وهذا الإنكار الداخلى قوىٌ لاسيما وأن النظام يقترب من الكمال ومن القوة الكليّة. كل شىء تمَّ إذن بضرب من التواطؤ المفاجئ، كما لو أن النظام بأجمعه، بسبب هشاشته الداخلية، كان يدخل فى رهان تصفيته، وبالتالى فى رهان الإرهاب. قيل: لا يستطيع الإله نفسه أن يعلن الحرب على نفسه. بلى، إنه يستطيع: فالغرب، فى مركز الإله، وكلية القوة الإلهية والشرعية الأخلاقية المطلقة، صار انتحارياً وأعلن الحرب على نفسه.

أما بالنسبة لمسألة ما الذى يتوجب إعادة بنائه مكان البرجين، فهى عسيرة على الحلّ - لا يمكننا أن نتخيل شيئًا موازيًا يستحق أن يدمّر. كان البرجان يستحقان التدمير. ولا يمكننا قول الشىء نفسه عن كثير من المبدعات المعمارية. فمعظم الأشياء لا تستحق أن تُدَمَّر أو أن يُضحّى بها - وحدها المبدعات الممتازة تستحق ذلك. ليس هذا المقترح كثير الغرابة، وإنه ليطرح سؤالاً أصوليًا على الهندسة المعمارية: لا يتوجب بناء إلا ما يمكن له بامتيازه أن يكون جديراً بأن يُدَمَّر. قم ببناء على هذا التساؤل بجولةٍ وسترى أن القليل من الأشياء ستقاومه.

هناك سوابق شهيرة لهذا الاعتداء، فى التدمير الإرادى لمبدعات سامية، تبدو فى جمالها أو فى قوتها مثل التحدى. التدمير الإجرامى لمعبد إيفيز(*) Ephèse، روما وهليوجابال Héliogabal(**)، حريق جناح الذهب Pavillon d Or لدى ميشيما(***). دون أن ننسى فى رواية *العميل السرى* Agent secret لكونراد Conrad، محاولة المعمارى أن يفجر بالديناميت مرقب جرينويش "لكى يحرر الشعب من الزمان".

مهما يكن الأمر، لقد اختفى البرجان. لكنهما خلّفا لنا رمز اختفائهما، رمز الاختفاء الممكن لهذه القوة الكلية التى كانا يجسّدانها. ومهما كان ما سيحصل فيما بعد، فإن هذه القوة قد دُمِّرَت هنا، فى خلال لحظة.

وفضلاً عن ذلك، إذا كان البرجان قد اختفيا فأنهما لم يُقضَ عليهما. فقد تركا لنا حتى وهما مسحوقان، شكل غيابهما. كل من

(*) كان معبد إيفيز (معبد أرتميس) يعتبر واحداً من روائع العالم السبعة، وقد أحرقه إيروستراث فى عام ٣٥٦ م بهدف تخليد اسمه، وقد حكم عليه بالنار ومنع ذكر اسمه تحت طائلة العقاب بالموت.

(**) هليوجابال (٢٠٤ ـ ٢٢٢ م)، إمبراطور رومانى (٢١٨ ـ ٢٢٢)، اتخذ اسم إليه (الجبل) فى الديانة الشمسية اسماً له، ونودى به من قبل جيش سورية إمبراطوراً وهو فى الرابعة عشرة من عمره، لكن أمه وجدته هما اللتان مارستا السلطة الحقيقية. تبنى ابن عمه سيفير ألكسندر ثم حاول التخلص منه، مما حمل القيادة الشرعية الرومانية على قتله مع أمه.

(***) يوكيو ميشيما (١٩٢٥ ـ ١٩٧٠)، من كبار الروائيين اليابانيين المعاصرين، وروايته جناح الذهب من أولى رواياته.

عرفوهما لا يستطيعون الكف عن تخيلهما، هما ورسماهما فى السماء، مرئيان من كل نقاط المدينة. وتجعلهما نهايتهما فى الفضاء المادى يعبران إلى فضاء خيالى حاسم. وبفضل الإرهاب، صارا أجمل عمران عالمى ـ الأمر الذى لم يكونا عليه زمن وجودهما.

وأيًا كان ما نفكر به حول مستواهما الجمالى، كان البرجان أداءً مطلقًا، وتدميرهما هو نفسه أداءٌ مطلق. هذا لا يبرر مع ذلك تمجيد شتوكهاوزن **Stockhausen** لـ١١ سبتمبر بوصفه أسمى المبدعات الفنية. لماذا يتوجب على حدث استثنائى أن يكون عملاً فنيًا؟ إن التحويل لصالح الجمالى كريه كالتحويل لصالح الأخلاقى أو السياسى ـ وخاصة حين لا يكون الحدث فريداً إلا لأنه على وجه الدقة يتجاوز الجمال مثلما يتجاوز الأخلاق. إن الحدث، مع قول ذلك ـ وضمن هذا المعنى فإن تصريحه صحيح ـ مذهلٌ في حد ذاته، ويتجاوز كل تعليق. إنه يستعصى على التصوير، لأنه يمتص في ذاته كل الخيال ولأنه لا ينطوى على معنى. إنه ينغلق على نفسه، كما يمكن أن يقول روتكو(*)، فى كل الاتجاهات. لا شىء يمكن أن يعادله. والصدى الوحيد سيكون ربما فى بعض أشكال الفن الحديث التى يسعنا اعتبارها إرهابية، ومن ثم مُبشرة بمثل هذا الحدث، ولكن ليس بوصفها تصويراً على الإطلاق ـ وليس بعده إطلاقًا.

(*) مارك روتكو Marc Rothko رسام أمريكى من أصل روسى (ليتوانيا ١٩٠٣ ـ نيويورك ١٩٧٠) ، يعتبر واحداً من كبار ممثلى التعبيرية التجريدية. هـ. م.

بعد مثل هذا الحدث، صار الوقت متأخراً بالنسبة للفن، وصار الوقت متأخراً بالنسبة للتصوير.

كانت اليوتوبيا الموقعية(**)حول تعادل الفن والحياة إرهابية فى الجوهر: إرهابية هى النقطة القصوى التى عبرت فيها جذرية الأداء الفنى أو الفكرة إلى الأشياء ذاتها، فى الكتابة الآلية للواقع، حسب نقل شعرى للموقع. لكن إذا كان الفن قد استطاع أن يحلم أن يكون هذا الحدث المادى الذى يمتص كل تصور ممكن، فإنه بعيد جداً عن ذلك، ولا شىء من نظام الخيال أو التصور يمكن أن يعادل أو أن ينافس اليوم مثل هذا الحدث.

وإلا فالمجاز المثير لهذا الفنان الأفريقى الذى طُلِبَ إليه عملٌ فنى لوضعه على بلاطة مركز التجارة العالمى. عمل كان يصوره نفسه، جسده وقد اخترقته الطائرات، كما لو أنه قديس سباستيان حديث. بعد أن جاء صباح ١١ سبتمبر إلى البرج لكى يعمل فى مرسمه، مات مدفوناً معه تحت أنقاض البرجين. ذلك ما سيكون عليه فى الأساس أوج الفن ـ الكمال السحرى للمبدَع وقد أنجِزَ أخيراً وشُوِّه وقضىَ عليه فى الوقت نفسه من قبل الحدث الحقيقى الذى كان يستبق تصويره.

(*) قامت النزعة الموقعية Situationnisme على نقد جذرى للفن والثقافة السائدين، ومن ثمّ فهى تتبنى إرث وتضع نفسها ضمن خط الحركات الفنية التى كانت قد ألغت من قبلها الفرق بين الاستنكار الفنى والنضال السياسى شأن حركة دادا والحركة السريالية. (انظر: موسوعة هاشيت) هـ. م.

كل شيء في الوهلة الأولى. كل شيء يتواجد مُصَرَّفًا في صدمة الحدود القصوى. وإذا رفضنا هذه اللحظة من الافتتان حيث يتواجد مكثفًا عبر خلود الصورة حدْسُ الحدث المذهل، فقدنا كل حظ في التقاط طابعه الاستثنائي. كل الخطابات لا تفعل شيئًا سوى أن تبعدنا عنه بصورة نهائية، وتضيع قوة الحدث في اعتبارات سياسية وأخلاقية.

في مواجهة حدث فريد لا بد إذن من ردّ فعل فريد، وفوريّ وحاسم. يستخدم طاقته المحتملة - باعتبار أن كل ما يتبع بما في ذلك الحرب ليس إلا شكلاً من أشكال التخفيف والاستبدال. من هنا صعوبة مواجهته بدون محاولة تفسيره بصورة ما: كل من يعمل على إعطائه معنى، ولو كان أدق المعاني وأكثرها محاباة، ينكره سراً. لأنّ ما يؤلف الحدث يصدر عن فصل النتائج عن الأسباب، وعن استباق النتائج وعن تجاوز للسببية يبدو معهما وكأنه يمحو مبدأها (لا شك أن شيئًا لم يحدث في الحقيقة إلا من لا يملك سببًا كافيًا ليحدث).

كل ما يمكن عمله، هو الردّ على حدث بحدث آخر، أي بتحليل غير مقبول على وجه الاحتمال شأن الحدث ذاته. وإذا كانت النتائج في الحدث المتفرد تتحرر من أسبابها، فإن على الفكر الذي يواجهه آنئذ أن يتحرر من فرضياته ومن مرجعياته.

هل هناك أسبقية للفكر على الحدث؟ يخامرنا الانطباع أن الحدث كان هنا على الدوام، حاضراً بالاستباق، وأنه يجري بأسرع مما يجري الفكر، خالقًا من حوله الفراغ فجأة ومجردًا العالمَ من كل حدث راهن.

وبطريقة ما على كل حال، نحن لا نعيشه كما لو أنه قد تمَّ حقًا، بل كمشهد خارق، مع القلق الاستعادى أن من الممكن ألا يكون قد وقع. إن واحداً من أدق التفاصيل يمكنه أن يفشّلَ مثل هذا المشروع وبلا شك، ولأجل هذا السبب التافه نفسه ـ لأن المصير حاذق ـ هناك أكثر من حدث استثنائى لن يحدث على الإطلاق. لكن عندما يحدث، فإنه يستثير أثرًا كعصف الريح، كقنبلة امتصاصية تخنق كل الأحداث القادمة؛ بحيث إنه يمحو لا كل ما سبقه فحسب، بل كذلك كل ما سيأتى بعده.

ومع ذلك، وبطريقة ما، فإن الفكر يستبقه، لأنه هو أيضًا يعمل على التفريغ، كى ما ينبثق ما لم يتم إبلاغه، وما لن يتم بلا شك أبداً. هذا ما يميز الفكر الجذرى عن التحليل النقدى: فهذا الأخير يعمل على مفاوضة موضوعه فى تبادل المعنى والتأويل، بينما يحاول الأول أن ينتزعه من هذه المساومة وإعادته إلى التبادل المستحيل. لم يعد الرهان فى الشرح، بل فى المبارزة، فى تحدٍّ خاصٍّ بالفكر وبالحدث. مقابل هذا ن إنما يسعنا الاحتفاظ للحدث بحرفيته.

يقارن التحليل الجذرى نفسه بالحدث ذاته. إنه لا يعتبره بوصفه واقعة ـ كل تأويل على أنه "واقعة" هو تأويل "مصطنع". وإذا كان صحيحاً أن معظم الحوادث تستسلم لتقليصها إلى حالة الواقعة، فوحدها التى تستحق اسم الحدث هى تلك التى تفلت منها. كما أن التحليل ليس مرآتها، أيضًا، لأن كل مواجهة مع "الواقع" مستحيلة (الواقع نفسه مستحيل، وواقعة أنه قد تمَّ لا تنزع شيئًا عن استحالته الموضوعية).

يجدر المقارنة بهذا الحدث فى استحالته، فى طابعه غير القابل للتصور، حتى كطارئ. إذا كان هناك حدث ما، فهو لا يستطيع إلا أن ينتزع المفاهيم من حقول مراجعها. وهو ما يجعل عبثًا كل محاولة للتشميل، بما فى ذلك من قبل الشر أو من قبل الأسوأ. حقًا سيستمر النظام دون كلل، ولكن من الآن فصاعداً بلا نهاية، حتى ولا نهايته الأخروية. بما أن الآخرة هى أصلاً هنا، فى شكل تصفية محتومة لكل حضارة، بل وربما للنوع. ***لكن ما صُفِّيَ، يجب تدميره أيضًا***. والفكر والحدث مقيّدان فى هذا الفعل من التدمير الرمزى.

ب فرضيات

حول الإرهاب

لنستبعد دفعة واحدة الفرضية القائلة إن ١١ سبتمبر لا يمكن أن يؤلّف إلا عارضًا أو طارئًا على طريق عولمة حاسمة. تلك فرضية يائسة في الأساس، لأنه قد حدث هنا شيء مذهل، وإنكاره يعنى قبول أنه لم يعد من الممكن - من الآن فصاعدًا - لأيّ شيء أن يؤلف حدثًا ، وأننا مكرسين لمنطق لا شرخ فيه لقوة عالمية قادرة على امتصاص كل مقاومة، وكل عداوة، بل وعلى تعزيز نفسها من خلالها - بما أن الفعل الإرهابى لا يؤثر إلا فى تسريع الهيمنة الكونية لقوة ولفكر وحيد.

تعارض هذه الفرضيةَ الصفر فرضيةٌ قصوى، والرهانُ الأقصى حول الطابع الحدثى لـ ١١ سبتمبر - الحدث مُعَرِّفًا نفسه بوصفه ما يخلق فى نظام تبادل معمم، فجأة، منطقة تبادل مستحيل: التبادل المستحيل للموت فى قلب الحدث ذاته والتبادل المستحيل لهذا الحدث مقابل أيّ خطاب. من هنا قوّته الرمزية التى أدهشتنا جميعًا فى أحداث مانهاتن.

حسب الفرضية صفر، الحدث الإرهابي بلا دلالة. كان عليه ألا يوجد، وفي الأساس فهو لا يوجد حسب فكرة أن الشرّ ليس إلا وهماً أو طارئًا عارضًا في مدار الخير - ومن ثمَّ في النظام العالمي وفي عولمة سعيدة. لقد قام اللاهوت دومًا على لا واقعية الشرّ هذه بوصفها كذلك.

فرضية أخرى: إنهم مجانين انتحاريون، مرضى عصابيون، متعصبون لقضية فاسدة، تلعب بهم هم أنفسهم قوة شرّيرة ما، لا تقوم إلا باستغلال حقد وكراهية الشعوب المضطهدة لإشباع نهمها في الهدم. الفرضية نفسها، لكنها أشد صلاحيّة، تحاول أن تعطي للإرهاب ضرباً من سبب تاريخي: السبب الذي يرى فيه التعبير الواقعي عن يأس الشعوب المضطهدة. لكن هذه الأطروحة هي ذاتها مريبة، لأنها تحكم على الإرهاب بألا يمثل البؤس العالمي إلا من خلال بادرة حاسمة من العجز. وحتى لو اعترفنا للإرهاب بضرب خاص من الاعتراض السياسي على النظام العالمي، فذلك للتشهير بفشله بصورة عامة، والذي ينتج عنه فجأة الأثر الخبيث الذي يتمثل في التعزيز اللاإرادي لهذا النظام العالمي. تلك هي صياغة أرونداتي روا(*) التي تشهّر - من خلال تشهيرها بالقوة المهيمنة - بالإرهاب بوصفه الأخ التوأم لها، التوأم الشيطاني للنظام. ولكن بين هذا وبين أن يتصور المرء أنه لو لم يوجد

(*) Arundhati Roy روائية وباحثة هندية تكتب باللغة الإنجليزية. لها عدد من الدراسات تعكس مشاركتها في النضال السياسي . وقد ترجمت روايتها إله الأشياء الصغيرة إلى أربعين لغة. (هـ. م.).

الإرهاب لابتكره النظام... ولماذا لا يكون اعتداء ١١ سبتمبر - والحالة هذه - ضربة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية؟

هنا أيضًا، يعنى ذلك افتراض أن كل عنف معادٍ هو فى النهاية شريك متواطئ مع النظام القائم، يعنى ذلك تجريد مقاصد الفاعلين ورهان فعلهم ذاته. يعنى ذلك إعادة فعلهم هذا إلى نتائجه "الموضوعية" (النتائج الجغرافية السياسية لـ١١ سبتمبر) لا إلى قوته الخاصة على الإطلاق. من يلعب لعبة الآخر؟ يعنى ذلك أيضًا أن الوسط الإرهابى هو الذى يستفيد من تقدم النظام كى يعزز هو نفسه من قوته، فى سباق موازٍ لا يلتقى فيه الخصمان أبداً بصورة حقيقية بخلاف صراع الطبقات والحروب التاريخية.

لا بل يجب المضى بعيداً أكثر: فبدلاً من فرضية تواطؤ "موضوعى" للإرهاب مع النظام العالمى، يجب افتراض فرضية معاكسة تمامًا، فرضية تواطؤ داخلى، عميق، لهذه القوة مع القوة التى تنتصب ضدها من الخارج - فرضية عدم استقرار وعجز داخليين يمضيان بمعنى ما للقاء التقويض العنيف للفعل الإرهابى. بدون فرضية هذا التحالف السرّىّ، هذا الاستعداد المسبق المتواطئ، لن نفهم شيئًا فى الإرهاب وفى استحالة القضاء عليه.

إذا كان هدفُ الإرهاب زعزعة النظام العالمى بقواه وحدها، فى صدمة وجاهية، فإنه هدف عبثى: إن علاقات القوى تبلغ حداً من عدم

التكافؤ ـ وعلى كل حال فإن هذا النظام العالمى هو أساسًا مكان هذه الفوضى وهذه الخلخلة – بحيث إن من غير المجدى فعل أى شىء إضافى. يعنى ذلك المخاطرة، بفعل هذه الفوضى الإضافية، بتعزيز اجهزة الرقابة البوليسية والأمنية كما نرى ذلك فى كل مكان اليوم.

ولكن ربما تواجد هنا حلم الإرهابيين ـ حلمُ عدوٍّ خالد. لأنه إن لم يعد يوجد، سيصير تحطيمه مستحيلاً. تحصيل حاصل على وجه التأكيد، لكن الإرهابَ تحصيلُ حاصل، ونتيجته قياس غريب: إذا وجدت الدولة حقًّا فستمنح الإرهاب معنى سياسيًا. وبما أن الإرهاب لا ينطوى فى الظاهر على معنىً (لكنه يملك معان أخرى)، فهذا هو الرهان على أن الدولة لا توجد وعلى أن سلطتها زهيدة.

ما هى إذن رسالة الإرهاب السريّة؟ فى حكاية من حكايات نصر الدين (جحا) كان يُرى كل يوم يعبر الحدود مع حمير محمّلة بأكياس. وفى كل مرة كانت الأكياس تُفتش ولا يُعثر فيها على شىء. واستمر نصر الدين فى عبور الحدود مع حميره. سئل بعد ذلك بزمن طويل ماذا يسعه أن يهرّبَ كلَّ مرة، فأجاب: "أهرّبُ الحمير".

هكذا يسعنا أن نتساءل فيما وراء الدوافع الظاهرة للفعل الإرهابى ـ الدين، أو الشهادة، أو الانتقام أو الاستراتيجية ـ عما هو الموضوع الحقيقى للتهريب؟ إنه بكل بساطة، عبر ما يظهر لنا على أنه انتحار، التبادل المستحيل مع الموت، أى تحدى النظام بالهبة الرمزية لموت. الذى يصبح سلاحاً مطلقًا (يبدو البرجان وقد فهما هذا الأمر ما داما قد استجابا له بانهدامهما).

تلك هي الفرضية ذات السيادة: ذلك أن الإرهاب لا ينطوى فى الأساس على معنى، ولا يمتلك هدفًا، ولا يُقاس بنتائجه "الحقيقية"، السياسية والتاريخية. ولأنه لا ينطوى على معنى فهو يؤلف بصورة عجيبة حدثًا فى عالم يزدحم أكثر فأكثر بالمعانى وبالفعالية.

الفرضية ذات السيادة هى الفرضية التى تفكر الإرهاب فيما وراء عنفه الخارق، وفيما وراء الإسلام وأمريكا، بوصفه انبعاث خصومةٍ جذريةٍ فى قلب عملية العولمة ذاته، ذات قوة لا يمكن تقليصها فى هذا الإنجاز الكامل التقنى والذهنى للعالم، وفى هذا التطور الحتمى نحو نظام عالمى مكتمل.

قوة مضادة حيوية فى صدام مع قوة موت النظام. قوة تحدٍّ لعالمية قابلة للانحلال كلية فى المرور وفى التبادل. قوة ذات خصوصية يتعذر تبسيطها، تزداد عنفًا بقدر ما يمدّ النظام هيمنته - وصولاً إلى حدث قاطع كحدث ١١ سبتمبر، لا يحلّ هذه الخصومة لكنه يعطيها دفعة واحدة بعداً رمزياً.

لا يبتكر الإرهاب شيئًا، ولا يدشن شيئًا. إنه يدفع الأشياء ببساطة إلى حدودها القصوى، إلى الذروة. إنه يهيّج وضعًا ما، منطقًا ما فى العنف واللايقين. إن النظام نفسه، بالتوسع المضارب لكل المبادلات، والشكل الطارئ والاحتمالى الذى يفرضه فى كل مكان، والحركة بلا هوادة، ورءوس الأموال العائمة، وسهولة الحركة والسرعة الإجبارية

يحمل من الآن فصاعداً على هيمنة مبدأ عام من اللايقين لا يقوم الإرهاب بأكثر من ترجمته إلى انعدام الأمن كليًا. هل الإرهاب خيالي وغير واقعي؟ لكن واقعنا الفرضي، ونظمنا في الإعلام وفي الاتصال هي الأخرى ومنذ زمن طويل، فيما وراء مبدأ الواقع. أما بالنسبة للرعب، فنعلم أنه هنا أصـــلاً في كل مكان، في العنف المؤســـسي والذهني والجسدي، بجرعات ضئيلة جداً. ولا يفعل الإرهاب أكثر من تذويب كل المركبات في محلول. إنه يستكمل عربدة القوة والحرية والمدّ والحساب التي كان البرجان تجسيداً لها، في الوقت الذي يؤلف فيه الهدمَ العنيفَ لهذا الشكل الأقصى من الفعالية والهيمنة.

وهكذا، لا يسعنا أمام نقطة الصفر، وفي أنقاض القوة العالمية، إلا أن نعثر من جديد بصورة يائسة على صورتنا.

على أنه ليس ثمة شيئًا آخر يُرى على نقطة الصفر - ولا حتى علامة عدائية ما نحو عدوٍّ غير مرئيّ. وحده يسود تعاطف الشعب الأمريكي الواسع مع نفســه - بواسطة الرايات ذات النجـوم والنذور وعبادة ضحايا وأبطال ما بعد الحداثة المتمثلين في رجال الإطفاء والشرطة. التعاطف كهوى قومي لشعب يريد نفسه وحيداً مع الإله ويُفضل أن يرى نفسه معاقبًا من قبل الإله بدلاً من قوة شريرة ما. لقد صارت جملة "فليبارك الله أمريكا": أخيراً عاقبنا الله. ذهول لكنه في الأساس اعتراف أبديّ لهذه العناية الإلهية التي جعلت منّا ضحايا.

إن تعليل الضمير الأخلاقي هو هذا: بما أننا الخير فلا يمكن إلا أن يكون الشرّ هو الذي عاقبنا. ولكن إذا كان الشرّ عسيراً على التصور في نظر الذين يعتبرون أنفسهم تجسيدَ الخير، فلا يمكن إلا أن يكون الله هو الذي عاقبهم. وليعاقبهم على ماذا أساساً إن لم يكن على طفرة في الفضيلة وفي القوة، أي على هذا الشطط الذي يعنيه عدم انقسام الخير والقوة؟ تذكير بالنظام لسعيهم بعيداً جداً في الخير وفي تجسيد الخير. وهو أمر لن يسيئهم ولن يمنعهم من الاستمرار في فعل الخير دون وسواس. ومن ثم من أن يتجاهلوا بصورة أشدّ عمقاً وجود الشرّ.

إنّ الأخ التوأم للتعاطف (التوأم بقدر توأمية البرجين)، هو الكبرياء. إننا نبكي على أنفسنا، وفي الوقت نفسه نحن الأقوى. وما يعطينا الحق في أن نكون أقوياء هو أننا من الآن فصاعداً ضحايا. إنه العذر الكامل، وهو كل النظافة الذهنية للضحية التي ينحلّ فيها كلّ شعور بالذنب، والذي يسمح باستخدام المصيبة بمعنى ما بوصفها بطاقة ائتمان.

كان الأمريكيون يفتقرون إلى مثل هذا الجرح (ففي بيرل هاربور، هوجموا بمفردات الحرب لا بمفردات الاعتداء الرمزي). هزيمة مثالية لأمة جُرِحَت أخيراً في القلب وحرّة، بما أنها كفرت عنها، في أن تمارس قوتها بوعي كامل. وضعٌ حُلِمَ به على الدوام في الخيال العلمي: حلم قوةٍ غامضةٍ ما تقضي عليهم لم تكن حتى ذلك الحين موجودة إلا في لا وعيهم (أو في سكتتات ذهنية أخرى). وها هي تتجلى مادياً بفضل

الإرهاب! وها هو محور الشرّ يستحوذ على لاوعى أمريكا ويحقق بالعنف ما لم يكن سوى صورة وهمية وفكرة حلم!

كلّ شئْ آت من أنّ الآخر، كالشرّ، لا يمكن تخيلُّه. كل شىء آت من استحالة تصوّر الآخر - صديقًا أو عدوًا - فى أخرويته الجذرية، فى أجنبيته التى لا يمكن التفاهم معها. رفض يتجذر فى التماهى الكامل مع الذات من حول القيم الأخلاقية والقوة التقنية. هذه هى أمريكا التى تعتبر نفسها أمريكا والتى فى حاجتها للغيرية تنظر إلى نفسها بطمع ضمن أشد ضروب التعاطف جنونًا.

لنتفاهم: ليست أمريكا هنا إلا المجازَ أو الوجهَ العام لكلّ قوة عاجزة عن تحمّل شبح الخصومة. كيف يمكن للآخر ما لم يكن غبيًا أو عصابيًا أو متوهمًا أن يريد نفسه مختلفًا، مختلفًا بصورة قاطعة، دون أن يملك حتى الرغبة فى الانضمام إلى إنجيلنا العام؟

ذلك هو كبرياء الإمبراطورية - كما هو الأمر فى مجاز بورخيس(*) (شعوب المرآة): تُنفى الشعوب المهزومة إلى ما وراء المرايا، محكومًا عليها أن تعكس صورة المنتصرين. (لكنها ذات يوم تبدأ فى التخفيف من شبهها بالمنتصرين عليها وتحطم المرايا أخيرًا وتنطلق لمهاجمة الإمبراطورية).

(*) جان لوى بورخيس : كاتب أرجنتينى ولد فى بيونس أيريس عام ١٨٩٩ وتوفى فى جنيف عام ١٩٨٦ .

نفس المنفى وراء مرآة التشابه لدى فيليب موراى **Philippe Muray** فى رسالته إلى "المجاهدين الأعزاء": "لقد صنعناكم يا أيها المجاهدون والإرهابيون، وستنتهون سجناء التشابه. إن جذريتكم، نحن الذين سربناها إليكم. نستطيع أن نفعل ذلك لأننا لا نبالى بشىء ولا بقيمنا. لا تستطيعون قتلنا، لأننا فى الأصل موتى. تظنون أنكم تقاوموننا، لكنكم منّا على غير وعى منكم، وقد صرتم أصلاً مندمجين." أو أيضاً: لقد قمتم بعمل جيد، لكنكم لم تفعلوا أكثر من انتحاركم بوصفكم خصوصية... لقد دخلتم بفعلكم نفسه فى اللعبة العالمية التى تمارسونها".

إقرار بدناءة ثقافتنا المحتضرة، لكنه أيضاً إقرار بفشل كل عنف منافس أو يظن نفسه كذلك. يا للمتمردين البؤساء، ياللسذج البؤساء! "سننتصر عليكم لأننا أشدّ موتًا منكم!"، لكن ***ليس المقصود ذات الموت***. عندما تشهد الثقافة الغربية انطفاء قيمها واحدة بعد الأخرى، تلتف نحو الأسوأ. إن موتنا نحن انطفاء، انعدام، إنه ليس رهانًا رمزيًا - وهنا يكمن بؤسنا. عندما تراهن خصوصية ما على موتها، فإنها تفلت من هذا الاستئصال البطىء، وتموت موتًا طبيعيًا. إنها لعبة واسعة إما أن يخسر فيها المرء كل شىء أو يربح كل شىء. إن الخصوصية بانتحارها تنحر الآخر فى الوقت نفسه - بوسعنا القول إن الأفعال الإرهابية قد "نحرت" الغرب تماماً. موت مقابل موت، إذن، لكنه مغيَّرٌ بالرهان الرمزى.

يقول موراى: "لقد اكتسحنا عالمنا، فما تريدون أكثر من ذلك؟". ***لكننا، لم نفعل شيئًا سوى اكتساح*** هذا العالم على وجه الدقة، ***ولا يزال***

من الواجب تدميره. تدميره رمزيًا. إنه ليس العمل ذاته على الإطلاق. ولئن كنا قد قمنا بالفعل الأول - فوحدهم آخرون من يستطيعون القيام بالثانى.

حتى فى الثأر وفى الحرب، يسعنا رؤية نفس القصور فى المخيلة - نفس استحالة تصور الآخر بوصفه خصمًا تام الخصومة، ونفس الحلّ السحرى القائم على استئصاله ومحوه دون أية شكليات.

إن جعل الإسلام تجسيدًا للشرّ سيكون تشريفًا له أيضًا (وتشريفًا للنفس فى الوقت نفسه). لكن لا يُنظر للأمر على هذا النحو: عندما يُقال إن الإسلام هو الشرّ، فإنه يُراد من وراء ذلك القول إن الإسلام ليس على ما يُرام، وإنه مريض، لأنه يُعاش كضحية مهانة، ويخمّر ضغينته بدلاً من أن يدخل بفرح فى النظام العالمى الجديد. الإسلام رجعى وأصولى بسبب اليأس. لكنه إذا صار هجوميًا فيتوجب عندئذ تقليصه إلى العجز. وبكلمة، إن الإسلام ليس ما يجب أن يكون عليه. والغرب، فى هذه الحال؟

نفس استحالة أن نتصور للحظة واحدة أن هؤلاء "المتعصبين" يستطيعون أن يلتزموا بـ"حرية" كاملة، دون أن يكونوا عميانًا، أو لاواعين، أو مخدوعين. لأننا نملك احتكار تقدير الخير والشر - أى ما يعنى: أنّ الخيار الوحيد "الحر والمسئول"، لا يمكن إلا أن يكون مطابقًا لقانوننا الأخلاقى. القائم على أن نعزو كل مقاومة، وكل مخالفة لقيمنا إلى عمى الضمير (ولكن من أين يأتى هذا العمى؟). أن يختار الإنسان

"الحر والمستنير" الخير بالضرورة، فذلك حكمنا المسبق العام - ومن ثمَّ الغريب، طالما أن الإنسان المرغم على هذا الخيار "العقلانى" لم يعد فى الأساس حراً فى قراره (لقد اختص التحليل النفسى هو أيضاً فى تأويل هذه الضروب من "المقاومة").

حول هذه النقطة، يقول لنا ليشتنبرج **Lichtenberg** شيئاً شديد الغرابة وشديد الجدة، وهو أن الاستعمال الجيد للحرية يتمثل فى الإفراط فيها والمغالاة فى استخدامها. بما فى ذلك تحمل أعباء الموت الشخصى وموت الآخرين. من هنا عبثية صفة "جبناء" المطبقة على الإرهابيين: جبناء لأنهم اختاروا الانتحار، جبناء لأنهم ضحّوا بالأبرياء (عندما لا يُتهموا بالاستفادة من ذلك ليدخلوا الجنة).

سيتوجب مع ذلك أن نحاول تجاوزَ الأمرَ الأخلاقى بالاحترام غير المشروط للحياة الإنسانية وأن نتصور أن بوسعنا أن نحترم فى الآخر وفى الذات شيئاً آخر وأكثر من الحياة (الوجود ليس كل شىء، بل هو أقل الأشياء): مصير، قضية، شكل من أشكال الفخر أو الكبرياء أو التضحية. هناك رهانات رمزية تتجاوز تجاوزاً كبيراً الوجود والحرية - التى لا يسعنا تحمل ضياعهما لأننا جعلنا منهما قيمتين وثنيتين لنظام إنسانوىٍّ عام. وهكذا لا يسعنا أن نتخيل فعلاً إرهابياً يُرتكب فى حالة استقلال ذاتى و"حرية ضمير" تامّين.

والحق، إن الخيار بمفردات واجب رمزى هو فى بعض الأحيان سرى بصورة عميقة - هكذا روماند، رجل الحياة المزدوجة الذى يقتل

أسرته كلها، لا خوفًا من أن يُكتشف، بل من أن يجعل عائلته تشعر بالخيبة العميقة عند اكتشاف كذبته. فانتحاره ما كان ليمحو الجريمة، بل كان سيتحرر من العار بإلقائه على الآخرين. أين الشجاعة، وأين الجبن؟ إن مسألة الحرية، مسألة حريته ومسألة حرية الآخرين، لم تعد تُطرح بمفردات الضمير الأخلاقى، وجدير بحريةٍ أسمى أن تتمكن من جعلنا نتمتع بها حتى الإفراط فيها أو حتى التضحية بها. عمر الخيام: "أليس من الأفضل لك أن تستعبد كائنًا واحداً بالتى هى أحسن من أن تحرر ألف عبد؟".

إذا ما نُظِر للأمر على هذا النحو فذلك يعنى أننا نكاد نشهد قلباً لجدلية السيطرة، قلبًا غريبًا لعلاقة السيد بالعبد. السيّدُ قديمًا كان هو مَن كان معرّضًا للموت ويستطيع المراهنة عليه. والعبد هو الذى وقد حُرِمَ من الموت ومن المصير، كان مكرّسًا للبقاء وللعمل. ما الذى عليه الأمر اليوم؟ نحن، الأقوياء الذين صاروا فى ملجأ من الآن فصاعداً من الموت والمحميين من كل جهة حماية عالية، نحتل على وجه الدقة وضع العبد، فى حين أن الذين يتصرفون بموتهم لا يملكون مثلنا البقاء كرهان وحيد - إنهم هم اليوم الذين يحتلون رمزيًا وضع السيّد.

اعتراض جدّىٌّ آخر، يتعلق هذه المرة لا بالدوافع، بل بالمضمون الرمزى للفعل الإرهابى. هل المقصود فى اعتداء ١١ سبتمبر، فى هذا التحدى العنيف لمنطق العولمة المنتصر، فعلٌ رمزىّ بالمعنى القوىّ (أى ما يقتضى ارتكاسًا وتحويلاً للقيم)؟ فى نظر كارولين

هنريش Caroline Heinrich مثلاً، لم يفعل الإرهابيون بهجومهم على منطق فى الاصطناع واللامبالاة باسم نظام قيم وواقع أعلى، إلا أن يبعثوا منطق هوية جديد. "ضدّ منطق اللامبالاة - كما تقول - عَمِلَ الإرهابيون على إضفاء معنى على ما لم يعد يملك معنى." وبما أن الواقع فى نظرنا هو على ما هو عليه، أى وهمٌ مرجعى، لم يفعل الإرهابيون أكثر من يُحِلّوا محله رهانًا آخر، وقيمًا جديدة قادمة من أعماق العصور.

وهو ما يأخذه عليهم أيضًا فيليبْ موراى Ph. Muray لقد كنا قد قضينا على كلّ قيمنا، بل إن هذا هو معنى كلّ تاريخنا، وتأتوننا بقيمكم الوهمية، وهويتكم الوهمية، و"نزاهتكم"، التى تعارضون بها عالمًا متفسخًا." يظنُّ الإرهابيون المرجعيات "المصطنعة" (البرجان، السوق، الثقافة الغربية الشاملة) مرجعيات حقيقية. ضد لا إنسانية التبادل الكامل، يدشنون من جديد ميتافيزيقا الحقيقة (حسب كارولين هنريش على الدوام). فى حين أن الجوهرى ليس فى مواجهة الاصطناع بل ***فى مواجهة الحقيقة ذاتها***. لا فائدة أبداً من مهاجمة الفرضى، إذا كان من أجل الوقوع مجدداً على الواقع.

لاسيما، حسب كارولين هنريش، وأن الإرهابيين هم أنفسهم فى حالة اصطناع كامل: إن الفعل الإرهابى يتولد عن نماذج. بل إنه مثل ممتاز على أسبقية النماذج على الواقع (لقد اجتُذِبَ مدراء هوليود كمستشارين من قبل الاستراتيجيين المعادين للإرهاب). ومن جهة أخرى، يتكيّف فعلهم فى كل جوانبه حسب أجهزة النظام التكنولوجية. فكيف يمكن آنئذ بِلَعِبِ اللعبة التى يلعبها زعمَ قَلْبِ غاياته؟

الاعتراض قوى، لكنه مُختَزِلٌ فى اقتصاره على خطاب الإرهابيين الدينى والأصولى الذى يزعمون بواسطته فعلاً الاحتجاج على النظام العالمى باسم حقيقة عليا. لكن لا فى الخطاب بل فى الفعل ذاته إنما هو "الظهور الأدنى لقابلية الانقلاب" الذى يجعل من هذا الفعل فعلاً رمزيًا. يغتال الإرهابيون نظام واقع كامل بفعل لا يملك، فى لحظته ذاتها، معنىً ولا مرجعًا حقيقيين فى عالم آخر. المقصود بكل بساطة تقويض النظام ـ اللامبالى هو نفسه بقيمه الخاصة به ـ حسب أسلحته الخاصة به. إن ما يستحوذون عليه من جوهرى أكثر من أسلحته التكنولوچية وما يجعلون منه سلاحًا حاسمًا هو اللا ـ معنى، وهذه اللامبالاة اللذان هما فى قلب النظام.

استراتيجية ارتكاس، وانقلاب القوة، لا باسم صدام أخلاقى أو دينى ولا "صدام حضارات" ما، بل بعدم القبولية المحضة والبسيطة لهذه القوة العالمية.

على أنه لا حاجة لأن يكون المرء إسلاميًا أو داعيًا إلى حقيقة عليا كى يجد هذا النظام العالمى غير مقبول. وسواء أكان هذا الرفض الأصولى إسلاميًا أم لم يكن فنحن نشارك فيه، وهناك كثير من علامات الارتباك والكسر، والهشاشة فى قلب هذه القوة ذاتها. تلك هى "حقيقة" الفعل الإرهابى، وليست هناك حقيقة أخرى، وليست هناك خصوصًا حقيقة أصولية نُرجِعُ إليها الفعل الإرهابى لتجريده من كل صفة.

إن ما يبعثه الإرهاب، هو شيء ما لا يُفاوض عليه فى نظام اختلافات وتبادلات معمّمة. اختلاف ولا مبالاة يتفاوضان فيما بينهما تماماً. إن ما يُكوِّنُ الحدثَ هو أنه لا مثيل له. وليس هناك من مثيل للفعل الإرهابى فى أية حقيقة متعالية.

عندما تعارضه كارولين هنريش بالرسوم الجدارية بوصفها الفعل الرمزى الوحيد الصارم فى كونها لا تعنى شيئًا وتستخدم العلامات الفارغة لتقودها إلى العبث، فهى لا تظن نفسها تقول شيئًا جيداً: إن الرسوم الجدارية هى حقًا فعلٌ إرهابى (مع نيويورك، هى أيضًا، بوصفها المأوى الأصلى)، لا بمطلبها الخاص بالهوية - "أنا فلان، إننى موجود، وأعيش فى نيويورك" -، بل بقضائها على كتابات ومعمار المدينة، بالهدم العنيف للدالّ ذاته (فقاطرات المترو الموشومة بالرسوم تدخل حتى قلب نيويورك تماماً كما وجَّهَ الإرهابيون طائرة البوينج على البرجين).

المسألة هى مسألة الواقع. إن هوى القرن العشرين وهوى القرن الحادى والعشرين فى نظر زيزك **Zizek**، هو الهوى الأخروى للواقع، الهوى المشتاق لهذا الشيء الضائع أو فى طريقه للضياع. ولا يفعل الإرهابيون فى الأساس أكثر من الاستجابة لهذا المطلب المؤثر للواقع.

وفى نظر فيليب موراى أيضًا، ليس إرهاب المجاهدين إلا رجفة واقع محتضر - أثر باق من تاريخ درامى فى نهاية المطاف، يبهتُ بالضبط لأنه مشرف على الموت. لكن هذا التذكيرَ بالنظام الذى يقوم به

الواقع والتاريخ يثير هو نفسه الشفقة، لأنه يتطابق مع طور سابق لا مع طور راهن لواقع كامل هو واقع العولمة. عند هذه المرحلة، لا يمكن إجابته بأى سلبية كانت. و لا يمكن الرد على هذا الهجوم "الأصولى" للنظام العالمى، إلا بانبثاق خصوصية لا علاقة لها من جانبها مع الواقع.

أحدث رواية لـ١١ سبتمبر وأكثرها غرابة هى تلك التى تعتبر كل شىء من عمل مؤامرة إرهابية داخلية (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، اليمين المتطرف الأصولى، ... إلخ). أطروحة ظهرت مع التشكيك بالهجوم الجوى على البنتاجون وتوسعًا بالاعتداء على البرجين (تييرى ميسان: الكذبة الرهيبة)(*).

وماذا إذا كان كل شىء مزيفًا؟ وماذا إذا كان كل شىء مزورًا؟ أطروحة هى من اللاواقعية بحيث تستحق معها أن تُؤخذ بالحسبان، كأىّ حدث استثنائى يستحق الشك فيه: هكذا يوجد على الدوام فينا مطلب فى آن واحد لحدث جذرى ولخداع شامل. استيهام مؤامرة يتأكد غالبًا تقريبًا: لم نعد نحسب عدد التحديات القاتلة، والاغتيالات، و"حوادث السيارات" التى يفتعلها مختلف ضروب الجماعات ودوائر المخابرات السرية.

إن ما يبقى من هذه الأطروحة فيما وراء حقيقة الوقائع، التى قد لا نعرف عنها شيئًا أبدًا، هو مرة أخرى، أن القوة المسيطرة هى

(*) Thierry Meyssan, L Effroyable Imposture.

المحرِّضة على كل شيء، بما في ذلك آثار التخريب والعنف، التي هي من نمط الخداع. والأسوأ، نحن أيضًا من اقترفه. ليس هناك أي فخر على وجه اليقين لقيمنا الديمقراطية، لكن ذلك يبقى أفضل من الاعتراف لمجاهدين غامضين بالقدرة على تكبيدنا مثل هذه الهزيمة. لقد سبق لنا أن فضلنا أصلاً في سقوط طائرة البوينج لوكربي ولأمد طويل فرضية قصور تقني على فرضية فعل إرهابي. حتى ولو كان الاعتراف بالقصور الذاتي خطيراً، فإنه لا يزال مفضلاً على الاعتراف بقوة الآخر (وهو ما لا يحول دون التشهير الذهاني الهذياني بمحور الشرّ).

إذا تبيّن أنّ مثل هذه الخديعة ممكنة، إذا كان الحدث مدبراً على نحو كامل، فإنه لن ينطوي بالطبع على أي مغزىً رمزي (لو فُجِّرَ البرجان من الداخل - على أساس أن سقوط الطائرة ما كان ليكفي كي يجعلهما ينهاران - لصار من الصعب القول إنهما قد انتحرا!). لم يعد المقصود إلا مؤامرة سياسية. ومع ذلك... حتى لو كان كلّ هذا من فعل زمرة ما من المتطرفين أو من العسكريين، فسيكون مع ذلك علامة (كما هو الأمر في اعتداء أوكلاهوما سيتي) عنف داخليٍّ مدمرٍ ذاتيًا، استعدادٍ غامضٍ لمجتمع يعمل على ضياعه - موضَّحًا بالاختلافات في القمة بين وكالة المخابرات المركزية CIA وشرطة المباحث FBI اللذين إذ حَرَمَ كل منهما الآخر من المعلومات أعطيا للإرهابيين فرصة خارقة في النجاح.

لقد طرح يوم ١١ سبتمبر بعنف مسألة الواقع، الذي تؤلف الفرضية المختلقة في المؤامرة نتاجه الثانوي الخيالي. وربما من هنا

الحمية التى رُفضت معها هذه الأطروحة من كل مكان. ألأنها يمكن أن تعتبر معادية لأمريكا وتنفى التهمة عن الإرهابيين؟ (لكن نفى التهمة عنهم، يعنى نزع مسؤولية الحدث عنهم، وهو ما ينضم إلى وجهة النظر المحتقرَة التى تفيد أنه لم يكن الإسلاميون أبداً قادرين على مثل هذا الأداء.) لا، إنه بالأحرى المظهر "الإنكارى" لهذه الأطروحة الذى يفسر عنف رد الفعل. إن إنكار الواقع هو فى حدّ ذاته إرهابى. كل شىء أفضل من الاعتراض عليه بوصفه كذلك. إن ما يجب الحفاظ عليه، هو قبل كل شىء مبدأ الواقع. فنزعة الإنكار هى العدو العام رقم واحد. لكننا فى الواقع نعيش أصلاً وعلى نحو واسع فى مجتمع إنكارى. لم يعد هناك أى حدث "حقيقى". اعتداءات، دعاوى، حرب، فساد، استقصاءات رأى: لم يعد هناك شىء لا يُزَوَّر أو لا يُبَتّ. والسلطة، والمسئولون والمؤسسات هم أول ضحايا المصيبة التى طالت مبدأى الحقيقة والواقع. فالجحود عام. ولا تفعل أطروحة المؤامرة إلا أن تضيف حلقة هزلية بالأحرى لهذا الوضع من الفوضى الذهنية. من هنا إلحاح مقاومة هذه النزعة الإنكارية المنتشرة والمحافظة بأى ثمن على واقع تحت الحقن المتواصل. لأنه إذا كان بالوسع نَصبُ جهاز من القمع والردع ضد الإرهاب والخطر المادى، فلا شىء سيحمينا من اختلال الأمن الذهنى هذا.

على أن كافة الاستراتيجيات الأمنية ليست إلا امتداداً للإرهاب. والانتصار الحقيقى للإرهاب يتمثل فى أنه استطاع أن يغرق الغرب كله فى هوس أمنى، أى فى شكل مُمَوَّهٍ من الإرهاب المستمرّ.

يُرعَمُ شبحُ الإرهاب الغرب على إرهاب نفسه ـ فالشبكة البوليسية على مستوى الكرة الأرضية هى على قدر توتر الحرب الباردة العامة، أى الحرب العالمية الرابعة التى ترتسم فى الأجساد وفى العادات.

وهكذا فإن أقوياء هذا العالم قد اجتمعوا مؤخرًا فى روما لتوقيع معاهدة يعلنون فى صوت واحد أنها تضع نهاية للحرب الباردة. لكنهم لم يخرجوا حتى من المطار، بقوا واقفين على الممر محاطين بالمدرعات وبالأسلاك الشائكة وبالطائرات المروحية، أى بكل رموز الحرب الباردة الجديدة، حرب الأمن المسلح، والردع المستمر لعدوٍّ غير مرئى.

لم يضع إلغاء البرجين لا سياسيًا ولا اقتصاديًا، النظام العالمى موضع فشل. هناك شيء آخر موضع رهان: الصدمة الكهربائية للعدوان، وقاحة نجاحه وفى الوقت نفسه ضياع الديْن، وخسارة الصورة. لأن النظام لا يستطيع أن يعمل إلا إذا استطاع أن يبادل نفسه مقابل صورته، أن ينعكس كالبرجين فى توأمتهما، أن يجد مُعادلَهُ فى مرجع مثالى. هذا ما يجعله حصينًا ـ وهذا التعادل هو ما حُطِّم. بهذا المعنى ومع كونه عسيراً على الإدراك كالإرهاب، إنما ضُرِبَ فى القلب.

جـ عنف العالمى

ليس الإرهاب الراهن حفيد تاريخ تقليدي للفوضى وللعدمية وللتعصب. إنه معاصر للعولمة ولكى نحيط بسماته يجب القيام من جديد بتأصيل وجيز لهذه العولمة فى علاقتها مع العام والخاص.

هناك بين لفظتى العالمى **mondial** والعام **universel** تشابه خادع. إن العمومية هى عمومية حقوق الإنسان، والحريات، والثقافة، والديمقراطية. أما العولمة فهى عولمة التقنيات، والسوق، والسياحة، والإعلام. تبدو العولمة ذات اتجاه لا محيد عنه، فى حين أن العامّ فى طريقه إلى التلاشى. على الأقل على النحو الذى تكوّنَ فيه من خلال نظامِ قيمٍ على صعيد الحداثة الغربية، لا نظير له فى أىّ ثقافة أخرى.

كل ثقافة تتعمم تفقد خصوصيتها وتموت. هكذا كان أمر كل الثقافات التى دمرناها بدمجنا إياها بالقوة وكذلك بثقافتنا فى تطلعها إلى العام. الفرق أن الثقافات الأخرى ماتت من خصوصيتها، وهو موت طبيعى، فى حين أننا نموت من فقدان كل خصوصية، ومن استئصال كل قيمنا، وهو موت عنيف.

نعتقد أن المصير المثالي لكل قيمة يكمن في ارتقائها إلى العام، دون أن نقدّر الخطر المميت الذي يؤلفه هذا الترفيع: إنه ليس ترفيعًا بقدر ما هو بالأحرى تخفيف إلى درجة الصفر من القيمة. في عصر التنوير، كان التعميم يتم بإسراف، حسب تقدم صاعد ـ أما اليوم فهو يتم بالغياب، بالهروب إلى الأمام نحو أصغر قاسم مشترك. هكذا الأمر بالنسبة لحقوق الإنسان، والديمقراطية، والحرية: فاتساعها يتطابق مع أضعف تعريفاتها.

الواقع أن العام يهلك في العولمة. وعولمة التبادلات تضع نهاية لعمومية القيم. إنه انتصار الفكر الوحيد عل الفكر العام. إن ما يتعولم، هو السوق أولاً، وفرة التبادلات وكل المنتجات، وتدفق المال المستمر. وثقافيًا، اختلاط كل العلامات وكل القيم، أى البورنوجرافيا. لأن الانتشار العالمى لكل شيء ولأيّ شيء على امتداد الشبكات، هو البورنوجرافيا: لا حاجة على الإطلاق للفجور الجنسي، ويكفي هذا الجماع التفاعلي. وفي نهاية هذه العملية، لا يعود ثمة اختلاف بين العالمى والعام. فالعام نفسه تعولم، والديمقراطية وحقوق الإنسان تعبر الحدود كأى نتاج عالمى، كالنفط أو كرءوس الأموال.

إن ما يحدث مع العبور من العام إلى العالمى، هو فى آن واحد تجانس وتبعثر إلى ما لا نهاية. ليس المحلى الذى يخلف المركزى، بل المتفكك. ليس ما يُزاحُ عن المركز مَنْ يخلف المركزى، بل المنحرف عن المركز. والتمييز والاستبعاد ليسا نتيجة طارئة، بل هما فى منطق العولمة نفسه.

آنئذ، يسعنا أن نتساءل إن كان العام لم يستسلم لنقده الخاص به وما إن كانا قد وجدا هو والحداثة فى مكان آخر غير الخطابات والأخلاق الرسمية. لقد تحطمت على كل حال بالنسبة لنا مرآة العام. لكن ربما كان ذلك مناسبة، لأنّ فى أجزاء هذه المرآة المحطمة تنبعث كل الخصوصيات: تلك التى كنا نظنها مهددة تعيش، وتلك التى كنا نظنها قد اختفت تنبعث من جديد.

يتجذر الوضع بقدر ما تفقد القيم العامة سلطتها وشرعيتها. ومادامت تفرض نفسها بوصفها قيمًا وسيطة، فهى تنجح نسبيًا بإدماج الخصوصيات بوصفها اختلافات ضمن ثقافة عامة للاختلاف، لكنها لم تعد من الآن فصاعداً تنجح لأن العولمة المنتصرة قضت على كل الاختلافات وعلى كل القيم، مدشّنة ثقافة (أو لا ثقافة) لا مبالية على نحو كامل. لم يبقَ، ما أن يختفى العام، إلا البنية - التقنية العالمية الكليّة القوة فى وجه الخصوصيات التى صارت من جديد وحشية ومتروكة لأمرها.

امتلك العامُ حظه التاريخى، أما اليوم، وهو يواجه من جهة نظامًا عالميًا بلا بديل ومن جهة أخرى انحرافَ أو تمرّدَ الخصوصيات، فإن مفاهيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان باتت باهتة بما أنها لم تعد إلا أشباح عامٍ مندثر.

كان العامُّ ثقافة المتعالى، والذات والمفهوم، والواقعى والتصور. أما فضاء العالمى الفرضى فهو فضاء الشاشة، والشبكة، والمحايث، والرقمى، هو فضاء - زمان بلا بُعْد. فى العامّ، كان لا يزال موجوداً

مرجعٌ طبيعيٌّ للعالم، وللجسد، وللذاكرة. ضرب من التوتر الجدلي والحركة النقدية يجدان شكلهما في العنف التاريخي والثوري. إن طرد هذه السلبية النقدية هو الذي يؤدي إلى ضرب آخر من العنف، عنف العالمي: تفوق الإيجابية الوحيدة والفاعلية التقنية، تنظيم شامل، وتداول كامل، وتعادل كل التبادلات. من هنا نهاية دور المثقف، المرتبط بعصر التنوير وبالعامّ - وكذلك أيضًا المناضل، المرتبط بالتناقضات وبالعنف التاريخي.

هل هناك قدر العولمة؟ كل الثقافات الأخرى غير ثقافتنا كانت تفلت بطريقة ما من قدر التبادل اللامبالي. أين العتبة الحرجة التي يتم فيها العبور إلى العامّ ثم إلى العالمي؟ ما هذا الدوار الذي يدفع العالم إلى تجريد الفكرة، وهذا الدوار الآخر الذي يدفع نحو التحقيق غير المشروط للفكرة؟

لأن العامّ كان فكرة. حين تحققت في العالمي، انتحرت كفكرة، كغاية مثالية. أما وقد صار الإنساني هيئة مرجعية وحيدة، أما وقد احتلت الإنسانية المحايثة لذاتها المكان الفارغ للإله الميت، يسود الإنساني وحده من الآن فصاعداً، لكنه لم يعد يملك سببًا نهائيًا. وبما أنه لم يعد يملك عدواً، فهو يستولده من الداخل، ويفرز كل ضروب الانبثاث غير الإنساني.

من هنا عنف العالمي هذا - عنف نظام يلاحق كل شكل من أشكال السلبية، والخصوصية، بما في ذلك هذا الشكل الأقصى من الخصوصية الذي هو الموت نفسه - عنف مجتمعٍ نُحرَمُ فيه فرضيًا من الصراع،

ونحرم من الموت ـ عنفٌ يضع نهاية بمعنى ما للعنف نفسه ويعمل لإقامة عالم متحرر من كل نظام طبيعي، سواء أكان نظام الجسد، أو الجنس، أو الولادة أو الموت. أكثر من العنف، يجب أن نتحدث عن الفتك. فهذا العنف جرثومي: إنه يعمل بالعدوى، برد فعل متسلسل، وهو يهدم بالتدريج كل حصاناتنا وقدرتنا على المقاومة.

ومع ذلك، لم ينته الأمر بعد، ولم تربح العولمة سلفًا. ففي مواجهة هذه القوة المهيمنة والمذيبة، نشهد قيام قوى متباينة في كل مكان ـ لا مختلفة فحسب بل متخاصمة. ووراء ضروب المقاومة المتنامية في حدتها للعولمة، وهي ضروب مقاومة اجتماعية وسياسية، يجب أن نرى أكثر من مجرد رفض عتيق: نوعًا من المراجعة المؤلمة بالنسبة لمكتسبات الحداثة و"التقدم"، نوعًا من رفض لا البنية ـ التقنية العالمية فحسب، بل بنية التعادل الذهنية لكل الثقافات. يمكن لهذا الانبثاق أن يتخذ مظاهر عنيفة، وغير عادية، ولا عقلانية بالمقارنة مع فكرنا المتنور ـ صوراً جماعية إتنية ودينية ولغوية ـ، بل وكذلك صوراً فردية مزاجية أو عصابية. سيكون من الخطأ إدانة هذه الانتفاضات بوصفها شعبوية وعتيقة لا بل وإرهابية. كل ما يؤلف حدثًا اليوم يؤلفه ضد هذه العمومية المجردة ـ بما في ذلك عداوة الإسلام للقيم الغربية (إذ لأنه أشد ضروب الاعتراض عليها عنفًا صار اليوم العدو رقم واحد).

من يستطيع أن يفشِّل النظام العالمي؟ من المؤكد أنها ليست حركة معاداة ـ العولمة، التي لا هدف لها سوى كبح الاختلال. يمكن للتأثير السياسي أن يكون هائلاً، في حين أن التأثير الرمزي معدوم. هذا العنف

لا يزال ضربًا من طارئ داخلي يستطيع النظام أن يتجاوزه مع بقائه سيد الموقف.

إن ما يسعه أن يفشِّل النظام، ليست البدائل الإيجابية، بل الخصوصيات. لكن الخصوصيات ليست إيجابية ولا سلبية. إنها ليست بديلاً، بل هي من نسق آخر. إنها لم تعد تخضع لحكم قيمة ولا إلى مبدأ واقعية سياسية. تستطيع إذن أن تكون الأفضل أو الأسوأ. لا يسعنا توحيدها في عمل تاريخي جامع. إنها تفشِّل كل فكر وحيد ومسيطر، لكنها ليست فكرًا مضادًا وحيدًا - إنها تبتكر لعبتها وقواعد اللعبة الخاصة بها.

ليست الخصوصيات عنيفة بالضرورة، ومنها الثاقبة كخصوصيات اللغة، أوالفن، أوالجسد أو الثقافة. لكن منها العنيفة - والإرهاب واحدة منها. إنها الخصوصية التي تنتقم لكل الثقافات الخصوصية التي دفعت تلاشيها ثمنًا لإقامة هذه القوة العالمية الوحيدة.

ليس المقصود إذن "صدمة حضارات" بل مواجهة، أنثربولوجية تقريبيًا، بين ثقافة عامّة لا متباينة وكل ما يحتفظ ، في أي ميدان من الميادين، بقدر من الغيرية غير القابلة للتبسيط.

بالنسبة للقوة العالمية، وهي أصولية بقدر الأرثوذكسية الدينية، كلُّ الصّور المختلفة والخصوصية هرطقات. وبهذه الصفة فهي مكرسة إما للدخول راضية أو مرغمة في النظام العالمي، وإما للتلاشي. ومهمة الغرب (أو بالأحرى الغرب السابق، بما أنه لم يعد يملك منذ زمن طويل قيمه الخاصة به) هي إخضاع الثقافات المتعددة بكل الوسائل لقانون التبادل

الضارى. إن ثقافة أضاعت قيمها لا تستطيع إلا أن تنتقم من قيم الثقافات الأخرى. وحتى الحروب - كذلك حرب أفغانستان - تهدف أولاً فيما وراء الاستراتيجيات السياسية أو الاقتصادية، إلى تطبيع الوحشية، وعلى إرغام الأراضى كلها على الخضوع. الهدف هو تقليص كل منطقة عاصية، واستعمار واستخدام كل الفضاءات البكر، سواء فى الفضاء الجغرافى أو فى العالم الذهنى.

إن وضع النظام العالمى هو نتيجة غيرةٍ ضارية: غيرة ثقافة لا مبالية وذات مستوى وضيع إزاء الثقافات ذات المستوى الرفيع - ثقافة النظم الخائبة، المفرغة من حدتها، إزاء الثقافات ذات الكثافة العليا - ثقافة المجتمعات الخالية من القدسية إزاء الثقافات أو الصور القربانية.

بالنسبة لنظام كهذا، كل شكل عاصٍ هو بالقوة إرهابى(١). هكذا أيضًا أفغانستان. أن يمكن، على صعيد أرض ما، لكل الإجازات

---

(١) بل يمكننا أن نفترض أن الكوارث الطبيعية هى شكل من أشكال الإرهاب. والحوادث التقنية الكبرى كحادث تشرنوبيل، تنتمى هى الأخرى فى آن واحد للفعل الإرهابى الكارثة الطبيعية. وكان يمكن للتسمم بالغاز السام فى بوپال Bhopal بالهند - وهو حادث تقنى - أن يكون فعلاً إرهابياً. وأى سقوط طائرة عارض يمكن أن تعلن جماعة إرهابية مسؤوليتها عنه. إن من صفة الأحداث اللاعقلانية أن يكون بالإمكان إسنادها لأىٍّ كان ولأىّ شىء. وبصورة ما، فإن كل شىء بالنسبة للمخيلة يمكن أن يكون ذا طبيعة إجرامية، حتى موجة البرد أو الهزات الأرضية - والأمر ليس جديداً على كل حال: فحين وقعت الهزة الأرضية فى طوكيو عام ١٩٢٣. شوهد الآلاف من الكوريين يُذبحون باعتبارهم مسؤولين عن الهزة الأرضية. فى نظام متكامل كنظامنا، كل شىء يملك نفس الأثر فى تقويض النظام. كل شىء يسهم فى قصور نظام يود أن يكون معصوماً. وبالنظر إلى ما نعانيه أصلاً فى إطار سيطرته العقلانية والبرنامجية، بوسعنا التساؤل إن لم تكن أسوأ كارثة متمثلة فى عصمة النظام نفسه.

والحريات "الديمقراطية" ـ الموسيقا والتلفزيون أو حتى وجه النساء ـ أن تكون ممنوعة، أن يتمكن بلد ما من أن يعاكس معاكسة تامة ما نسميه حضارة ـ أيًا كان المبدأ الدينى الذى يستند إليه، أمر لا يطاق فى بقية العالم "الحر". لا مجال لأن يمكن للحداثة أن تُنْكَرَ فى تطلّعها العامّ. أن لا تظهر بوصفها بداهة الخير والمثل الأعلى الطبيعى للنوع، وأن توضع موضعَ شكٍّ كلُّ عمومية عاداتنا وقيمنا، حتى ولو كان ذلك من قبل بعض العقول التى سرعان ما توصف على أنها متعصبة، أمرٌ إجرامىٌّ فى نظر الفكر الوحيد والأفق الإجماعى للغرب.

هذه المواجهة لا يمكن أن تُفهَمَ إلا فى ضوء الالتزام الرمزى. يجب لفهم كراهية باقى العالم نحو الغرب، أن نقلب كل المنظورات. ليست كراهية أولئك الذين أخذنا منهم كل شىء ولم نردّ لهم شيئًا، بل هى كراهية الذين أعطيناهم كل شىء دون أن يتمكنوا من ردّه. إنها ليست إذن كراهية انتزاع الملكية والاستغلال، بل هى كراهية الإذلال. وعلى هذه الكراهية إنما يجيب إرهاب ١١ سبتمبر: إذلال ضد إذلال.

والأسوأ بالنسبة للقوة العالمية ليس فى الاعتداء عليها أو فى تحطيمها، بل فى إذلالها. ولقد أذلت فى ١١ سبتمبر، لأن الإرهابيين كبدوها هنا شيئًا لا تستطيع ردّه. كل ضروب الانتقام ليست إلا أداة إضرار مادى، فى حين أنها هزمت رمزيًا. تردُّ الحرب على الاعتداء، لكنها لا تردّ على التحدى. ولا يمكن رفع التحدى إلا بإذلال الآخر بالمقابل (ولكن ليس على وجه اليقين بسحقه تحت القنابل ولا بسجنه كالكلب فى جوانتانامو).

إن أساسَ كل سيطرة، غيابُ المقابل ـ دومًا حسب القاعدة الأصولية. إن الهبة من طرف واحد هى فعل سلطة. وإمبراطورية الخير، وعنف الخير، هو بالضبط العطاء دون مقابل ممكن. أى أن تحتل مكان الإله. أو مكان السيِّد، الذى يترك الحياة سليمة للعبد، مقابل عمله (لكن العمل ليس مقابلاً رمزيًا، الجواب الوحيد إذن هو فى النهاية الثورة أو الموت). بل إن الإله يفسح المجال للتضحية. وفى النظام التقليدى، هناك على الدوام إمكان الرد للإله أو للطبيعة أو لأى هيئة ما من خلال التضحية. هذا ما يُؤمِّنُ التوازن الرمزى للكائنات وللأشياء. اليوم، ليس لدينا أى شخص نرد عليه، ونرد له الدَّيْن الرمزى ـ وهذه هى لعنة ثقافتنا. لا لأن الهبة فيها مستحيلة، بل لأن الهبة المضادة فيها مستحيلة، بما أن كل دروب التضحيات قد حُيِّدَت وأوقفت عن العمل (لم يعد يوجد إلا محاكاة التضحية، المرئية فى كل الصور الراهنة للتضحوية.

نحن على هذا النحو فى وضع محتوم من التلقى، والتلقى على ..م، لا من الإله، أو من الطبيعة، بل من قبل نسق تقنى للتبادل المعمم، و..ن منحة عامة. كل شىء معطى لنا فرضيًا، ولدينا الحق فى كل شىء، بالرضا أو بالإكراه. نحن فى وضع العبيد الذين تركت لهم الحياة والذين ارتبطوا بديْنٍ لا يمكن التحلل منه. كل ذلك يمكن أن يعمل زمنًا طويلاً بفضل التسجيل فى التبادل وفى النظام الاقتصادى ولكن، فى لحظة ما، تتغلب القاعدة الأصولية، ويرد على هذا النقل الإيجابى بصورة لا مرد عنها نقلُ معاكس سلبى، تصريف انفعال عنيف لهذه الحياة الأسيرة،

لهذا الوجود المحميّ، لهذا الإشباع في الوجود. يتخذ هذا الارتداد إما صورة عنف مفتوح (والإرهاب يؤلف جزءًا منه)، أو صورة إنكارٍ عاجز، خاص بحداثتنا، وكراهيةِ الذات والندم، كل الأهواء السلبية التي هي صُوَرٌ منحدرة من المنحة المضادة المستحيلة.

إن ما نكرهه فينا، وموضوع حقدنا الغامض، هو هذا الإفراط في الواقع، هذا الإفراط في القوة وفي الرفاه، هذا الجاهزية العامة، هذا الإنجاز الأخير - المصير الذي يحتفظُ به في الأساس المفتش الأعظم للجماهير المدجنة لدى دستويفسكي. والحق أن هذا ما يستنكره الإرهابيون في ثقافتنا - ومن هنا الصدى الذي يلقاه الإرهاب والسحر الذي يمارسه.

وبقدر ما يعتمد على يأس المذّلين والمهانين، يعتمد الإرهاب على هذا النحو على اليأس غير المرئي لمحظوظي العولمة، على خضوعنا الخاص لتكنولوجيا كاملة، على واقع فرضيٍّ ساحق، على سيطرة شبكات وبرامج ترسم ربما صورة جانبية لا تتطور للنوع بأكمله، للنوع البشري وقد صار "عالميًا" (أليست سيطرة النوع الإنساني على بقية الكوكب هي على صورة سيطرة الغرب على بقية أنحاء العالم؟). وهذا اليأس غير المرئي - يأسنا - قطعي، بما أنه يصدر عن تحقيق كل الرغبات.

إذا كان الإرهاب ينبثق على هذا النحو من هذا الإفراط في الواقع ومن تبادله المستحيل، من هذه الوفرة بلا مقابل ومن هذا الحل

الإجبارى للصراعات، ***فإن وهم استئصاله بوصفه شرًا موضوعيًا وهم شامل***، بما أنه، على النحو الذى هو عليه، فى عبثيته ولا معناه، هو الحُكْمُ والعقوبة التى يَحْكمُ بها هذا المجتمع على نفسه.

3

قناع الحرب

"لا مع ولا ضد ـ على العكس تمامًا"، هذا هو عنوان فيلم سيديريك لابيش. لامع ولا ضد الحرب. تعني عبارة "على العكس تمامًا" أنه لا وجود لفرق بين الحرب واللا حرب وأنه قبل اتخاذ موقف يجب أن نكون واعين لوضع الحدث. سوى أن هذه الحرب هي لا حدث، ومن العبث اتخاذ موقف من لا حدث. يجب أولاً معرفة ما تحجبه، وما تحلُّ محلَه، وما تفيد في استبعاده. ولا حاجة للبحث زمنًا طويلاً: فالحدث الذي يواجهه – لا حدث الحرب – هو ١١ سبتمبر.

يتوجب على التحليل أن ينطلق من هذه الإرادة في الإلغاء، والمحو، وتبييض الحدث الأصلي، وهو ما يجعل هذه الحرب الشبحية، العسيرة على التصور بمعنى ما، مادامت لا تملك غاية خاصة بها أو ضرورة أو عدواً حقيقياً (فصدام ليس إلا ألعوبة): إنها لا تملك إلا صورة طرد، طرد حدث يستحيل على وجه الدقة محوه.

وهو ما يجعل منها منذ الآن بلا نهاية، حتى قبل أن تبدأ. والواقع أنها قد وقعت أصلاً ويؤلف تعليقها جزءًا من كذبة هذه الحرب. إنها

تدشن حرباً لا نهاية لها لن تقع أبداً. وهذا التعليق هو الذى ينتظرنا من الآن فصاعداً فى المستقبل، هذه الأحداث الراهنة المنتشرة من الابتزاز ومن الإرهاب فى إهاب مبدأ عام فى الوقاية.

بوسعنا إدراك هذه الآلية فى فيلم أخير لسبيلبيرج **Spielberg**: تقرير مجموعة الأقلية **Minority report** فعلى أساس استباق الجرائم القادمة، تقوم فرقة من المغاوير البوليسية بالقبض على المجرم قبل أن يقوم بجرمه.

وهذا هوعلى وجه التدقيق سيناريو حرب العراق: القضاء على فعل الجريمة القادم فى مهده (استخدام صدام لأسلحة الدمار الشامل). والسؤال الذى يطرح نفسه بصورة لا تُقاوَم، هو: هل كانت الجريمة المفترضة سترتكب؟ لن نعرف شيئًا عن ذلك أبداً مادام قد تم استدراكها.(صدام بلا أهمية.) لكن ما يرتسم عبرها، هو تفكيك برمجة آلىّ لكلّ ما يمكن أن يحدث، شكلٌ من الوقاية على المستوى العالمى، لا من كل جريمة فحسب بل من كل حدث يمكن أن يشوش نظامًا عالميًا يعتبر مهيمنًا. اجتثاث "الشرّ" فى كل أشكاله، اجتثاث العدو الذى لم يعد له وجود بوصفه كذلك (يتمّ استئصاله بكلّ بساطة)، اجتثاث الموت: تصير "صفر من الموتى" لازمة للأمن العام. مبدأ حقيقيًا فى التنظيف، والتحذير و"منع الضلال"، ولكن دون توازن الإرهاب.

هذا الردع بلا حرب باردة، هذا الإرهاب بلا توازن، هذه الوقاية القاسية باسم الأمن سيصير استراتيچية كونية.

إنّ "الشرّ" هو ما يحدث بلا إنذار، ومن ثم بدون وقاية ممكنة. تلك على وجه اليقين حالة ١١ سبتمبر - وهو فى ذلك إنما يؤلف حدثًا ويتعارض جذريًا مع لا حدث الحرب.

إن ١١ سبتمبر هو حدث مستحيل، عسير على التصور. وهو يتحقق قبل أن يكون ممكنًا (حتى أفلام الكوارث لم تستبقه، بل استنفذت على العكس مخيلتها فيها). إنه من نسق الطارئ الجذرى (حيث نعثر على المفارقة التى لا تصير بموجبها الأشياء ممكنة إلا بعد وقوعها).

الاختلاف كامل مع الحرب، التى، وهى على قدر كبير من التوقع، والبرمجة، والاستباق، بحيث إنها لم تعد تحتاج حتى لأن تقع. وحتى لو وقعت "فعلاً"، فقد سبق وقوعها افتراضيًا - لن تكون حينئذ حدثًا إذن. إن الواقعى هنا هو أفق الفرضىّ.

و يتعزز هذا السلطان للفرضى أيضًا بحقيقة أن هذه الحرب المعلنة كما لو أنها نظيرَ، صِنوَ حرب الخليج (وبوش هو صنو أبيه). إنهما إذن حدثان صنوان يؤطران من الطرفين الحدث الحاسم.

نفهم انطلاقًا من ذلك وعلى نحو أفضل بم هذه الحرب هى حدث شبحى **ghost event**، حدث ألعوبة على صورة صدام. خديعة هائلة - للأمريكيين أنفسهم: فمع ١١ سبتمبر دُشِّنَ فى الوقت الذى بدأ فيه العمل من أجل النسيان، عملٌ ضخمٌ للمنع: إن ١١ سبتمبر لم يقع، حسب المبدأ الوقائى نفسه، ولكن بصورة استرجاعية. مشروع بلا أمل وبلا نهاية.

ولكن ما هى حينئذ الاستراتيچية الأخيرة أو على الأقل النتيجة الموضوعية لهذا الابتزاز الوقائى؟ إنها ليست توقع الجريمة، وإقامة الخير، وتصحيح مسار العالم اللاعقلانى. حتى النفط والاعتبارات الجغرافية الاستراتيچية المباشرة ليست الأسباب الأخيرة. إن السبب النهائى هو إقامة النظام الأمنى، تحييدٌ عامٌّ للشعوب على قاعدة لا حدث نهائى. نهاية التاريخ بمعنى ما، ولكن لا تحت علامة الليبرالية المنتصرة على الإطلاق ولا الإنجاز الديمقراطى كما هو الأمر لدى فوكوياما ـ بل على قاعدة إرهاب وقائى يضع حداً لكل حدث ممكن.

إن الإرهاب المقطر ـ النظام وقد آلَ إلى إرهاب نفسه باسم الأمن: هو ذا انتصار الإرهاب. وإذا كانت الحرب الفرضية قد انتصرت فيها القوة العالمية ميدانيًا، فإن الإرهاب هو الذى انتصر فيها على الصعيد الرمزى بحلول الفوضى المعممة.

ثمَّ إن اعتداء ١١ سبتمبر هو الذى استكمل عملية العولمة ـ لا عولمة السوق، وتدفق رءوس الأموال، بل عولمة رمزية وأكثر عمقًا وهى عولمة الهيمنة العالمية ـ وذلك باستثارته تحالف كل السلطات الديمقراطية أوالليبرالية أوالفاشية أو الشمولية، المتواطئة والمتضامنة بصورة عفوية فى الدفاع عن النظام العالمى. كل السلطات ضد "آليين"(*) واحد. وكل

(*) إشارة من المؤلف إلى فيلم ريدلى سكوت Ridley Scott الذى يحمل الاسم نفسه Alien، وهو قصة مخلوق رهيب من خارج الأرض جاء محمولاً فى مركبة فضائية.

العقلانيات الهائجة ضد ادعاء الشر. في حين أن كل العالم إنما يقف ضد هذه القوة العالمية، وضدها إنما تظهر فجأة قوة الإرهاب المضادة الرمزية. لقد فجرت هذه القوة الأخيرة كبرياء وشطط هذه القوة التى أرغمت العالم كله على احترامها عشيّة حرب غير مفهومة.

بلغ هذا الإرهاب الوقائى، غير الآبه أبداً بمبادئه الخاصة به (الإنسانية والديمقراطية) حداً دراميّاً أقصى فى حلقة مسرح موسكو حيث جرى كل شيء على وجه الدقة تماماً كما جرت الأمور وقت حادثة البقرة المجنونة: كان يتم القضاء على كل القطيع احترازاً - والرب سيتعرف عباده. اختلط الأسرى بالإرهابيين خلال المذبحة - أى أنهم متواطئون فرضياً. المبدأ الإرهابى وقد عمم على كل السكان. تلك هى الفرضية الضمنية للسلطة: إن السكان أنفسهم هم تهديد إرهابى لها. والإرهاب فى فعله يبحث عن هذا التضامن مع السكان دون أن يعثر عليه. إلا أن السلطة نفسها هنا هى التى تحقق بعنف هذا التواطؤ غير الإرادى.

إننا فرضياً أسرى السلطة، وعلينا مواجهة حلف مؤلف السلطات كلها ضد السكان جميعاً - وهذا مرئى تماماً اليوم فى اقتراب هذه الحرب التى ستقع على كل حال غير آبهة بالرأى العام العالمى.

هذا الوضع الشامل يعطى الحق لفيريليو حين يتحدث عن حرب أهلية كونية.

والنتيجة السياسية الأشد درامية لهذه الأحداث، هى انهيار مفاهيم الجماعة الدولية وبصورة أعم مفاهيم كل نظام التمثيل والشرعية.

والمظاهرات الأخيرة ضد الحرب حيث خيل إلينا رؤية قيام سلطة مضادة، ليست هى ذاتها سوى عرضًا مقلقًا من هذه الفجوة، هذا الصدع فى التمثيل - بما أن أحدًا لا يريد الحرب، لكنها ستقع مع ذلك، مع الموافقة شبه الضمنية لكل السلطات.

إننا نواجه من الآن فصاعدًا ممارسة قوةٍ فى حالتها المحضة، سلطةٍ دون سيادة. إذ ما دامت السلطة تستمد سيادتها من التمثيل، وما دامت تملك مبررًا سياسيًا، فإنه يمكن لممارستها أن تجد توازنها، وفى كل الأحوال يمكن مقاومتها والاعتراض عليها. لكن انمحاء هذه السيادة يفسح المجال لسلطة جامحة، دون مقابل، وفى حالة وحشية (وحشية ليست طبيعية بقدر ما هى تكنولوجية). وهذه السلطة التى لم تعد تملك مرجعًا مشروعًا، ولا حتى عدوًا حقيقيًا (ما دامت تحوّله إلى نوع من شبح مجرم) ترتدّ دون أية عقدة ضد سكانها الخاصين بها.

لكن الواقع الكامل للسلطة هو أيضًا بلا نهاية. إنَّ سلطة كاملة لم تعد تقوم إلا على الوقاية والردع والأمن والرقابة، هى سلطة قابلة للعطب رمزيًا: لم تعد تستطيع المراهنة على نفسها وهى ترتدّ فى النهاية على نفسها. هذا الضعف، وهذا العجز الداخلى للقوة العالمية هو ما يكشف عنه الإرهاب على طريقته - كقلق لاواعٍ يكشف عن نفسه بفعلٍ لم يتمّ. ها هنا "جحيم السلطة" على وجه التحقيق.

يبدو يوم ١١ سبتمبر على هذا النحو من وجهة نظر السلطة كما لو أنه تحدٍّ هائل أراقت فيه القوة العالمية ماء وجهها. وهذه الحرب، وهى أبعد من أن تواجه التحدى، لن تمحو ذلّ ١١ سبتمبر.

هناك شىء رهيب فى حقيقة أن يستطيع هذا النظام العالمى الفرضى أن يحقق دخوله فى "الواقعى" بمثل هذه السهولة.

كان الحدث الإرهابى غريباً، ذا غرابة لا تحتمل. واللا حرب، فيما يخصها، تدشن الألفة المُقلقَة للإرهاب.

4

بورنوجرافيا الحرب

مركز التجارة العالمى: الصدمة الكهربائية للقوة، الإذلال المفروض على القوة، ولكن من الخارج. مع صور سجون بغداد، الأمر أسوأ، إنه الإذلال، المميت رمزياً بنفس القدر، الذى تكبده القوة العالمية لنفسها ـ أى للأمريكيين بالنتيجة ـ، الصدمة الكهربائية للعار والضمير السيئ. هذا ما يربط بين الحدثين.

أمام الحدثين، رد فعل عنيف فى العالم أجمع: فى الحالة الأولى شعور بالمعجزة، وفى الحالة الثانية ، شعور بالدناءة .

بالنسبة لـ ١١ سبتمبر، الصور المثيرة للحماس لحدث كبير، فى الحالة الثانية، الصور الشائنة لشىء هو عكس الحدث، لا ـ حدثٌ ذو تفاهة داعرة، الانحطاط ، الفظيع، لكنه التافه، لا للضحايا فحسب بل لكتابٍ هواةٍ كتبوا سيناريو هذه المحاكاة للعنف. لأن الأسوأ لا يزال يتجلى فى أن المقصود هنا محاكاة للعنف، محاكاة للحرب ذاتها، البورنوجرافيا وقد صارت الشكل النهائى لدناءة حرب عاجزة عن أن

تكون حرباً بكل بساطة، عن أن تقتل ببساطة، والتى تنهك ذاتها فى مشهد واقعى واستبدادى وساخر وصبيانى، فى وهم القوة اليائس .

هذه المشاهد هى توضيح لقوة لم تعد تعرف وقد بلغت أقصى درجاتها ماذا تفعل بنفسها - لسلطة هى من الآن فصاعداً بلا موضوع، بلا غاية، مادامت بلا عدو معقول، ولا تخضع لأىّ ضرب من ضروب القصاص. لم تعد تستطيع إلا أن تفرض إذلالاً مجانياً، وكما نعلم، فإن العنف الذى نفرضه على الآخرين ما هو أبداً إلا التعبير عن العنف الذى نفرضه على أنفسنا، ولا تستطيع فى الوقت ذاته إلا أن تذل نفسها، وتهين ذاتها وأن تنكر ذاتها فى ضرب من الضراوة المنحرفة. إن الخزى والقذارة هما الدلالة القصوى لقوة لم تعد تعرف ماذا تفعل بنفسها .

مع ١١ سبتمبر، كان الأمر كما لو أنه رد فعل شامل لكل الذين لم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون بهذه القوة العالمية والتى لم يعودوا يتحملونها. والأمر فى حالة سوء معاملة العراقيين أشدّ سوءاً: إنها هى ذاتها، القوة التى لم تعد تعرف ماذا تفعل بذاتها ولم تعد تحتمل نفسها إلا فى محاكاة ذاتها بصورة لا إنسانية .

هذه الصور قاتلة بالنسبة لأمريكا بقدر ما هى كذلك صور مركز التجارة العالمى وهو يحترق. ومع ذلك، فإن أمريكا فى ذاتها ليست موضع اتهام، ومن غير المفيد أن نتهم الأمريكيين: فالآلة الجهنمية تحتدم من نفسها فى أفعال محض انتحارية. والواقع أن الأمريكيين

مسبوقون بقوتهم الخاصة بهم. لم تعد لديهم وسائل التخلص من آثارها. ونحن جزء لا يتجزأ من هذه القوة. إنه الغرب كله الذى يتبلر ضميره السيئ فى هذه الصور، إنه الغرب كله مَنْ هو هنا فى الضحكة السادية للجنود الأمريكيين، كما أن الغرب كله مَنْ هو وراء بناء الجدار الإسرائيلى .

ههنا حقيقة هذه الصور، ما هى مشحونة به: شطط قوة تشير إلى نفسها بوصفها دنيئة وبورنوجرافية . الحقيقة، لا الصدق. إذ اعتباراً من هنا، من غير المفيد معرفة ما إذا كانت صحيحة أو مزيفة. نحن من الآن فصاعداً وإلى الأبد فى حالة عدم يقين فيما يخص الصور. وحده أثرها المهم من حيث إنها مغمورة فى الحرب. بل لا حاجة لصحفيين ملحقين بالجيش **embedded**، فالعسكريون أنفسهم غارقون فى الصورة ـ بفضل آلات التصوير الرقمية صارت الصور مندمجة نهائيًا مع الحرب . لم تعد تمثلها ، ولم تعد تقتضى لا مسافة، ولا إدراكًا، ولا حكمًا. لم تعدَ تعدّ ضمن نسق التمثيل، ولا الإعلام بالمعنى الدقيق وفجأة، فإن مسألة معرفة ما إذا كان يجب إنتاجها، وإعادة نسخها، وبثها، ومنعها، أو المسألة "الجوهرية" المتمثلة فى معرفة ما إذا كانت صحيحة أو مزيفة، باتت "خارج الموضوع".

لكى تكون الصور معلومات حقيقية، يتوجب أن تكون مختلفة عن الحرب. فى حين أنها صارت اليوم على وجه الدقة فرضية بقدر فرضية الحرب، ومن ثم فإن عنفها الخصوصى ينضاف إلى العنف الخصوصى

للحرب. ومن ناحية أخرى، وبسبب حضورها المهيمن، وبسبب القاعدة التى صارت اليوم عالمية والتى تقوم على أن كل شىء قابل للرؤية، فإن الصور، صورنا الراهنة، صارت جوهرياً بورنوجرافية، فهى تتخذ إذن عفوياً الوجه البورنوجرافى للحرب.

تتواجد فى كل ذلك، وخصوصاً فى الحلقة العراقية الأخيرة، عدالة ملازمة للصورة: من يراهن على المشهد يهلك بالمشهد. تريدون السلطة بواسطة الصورة؟ إذن ستهلكون بعودة ـ الصورة.

لقد عاش الأمريكيون وسيعيشون مرارة التجربة. وذلك على الرغم من كل الأعذار "الديمقراطية" ومن شبه شفافية يائس يستجيب لشبه قوة عسكرية يائس. من اقترف هذه الأفعال ومن هو المسئول حقاً؟ القيادات العسكرية ؟ الطبيعة البشرية الحيوانية كما نعلم "حتى فى جو الديمقراطية"؟ لم تعد الفضيحة الحقيقية فى التعذيب، بل هى فى خيانة أؤلئك الذين كانوا يعرفون والذين لم يقولوا عن ذلك شيئًا (أو فى الذين كشفوا عنه ؟). على كل حال، كل العنف الحقيقى قد حُوِّلَ نحو مسألة الشفافية ـ الديمقراطيةُ وقد وجدت نفسها تستعيد فضيلتها من خلال الكشف عن عيوبها.

وبعيداً عن كل ذلك، ما هو سرّ هذه المناظر الدنيئة ؟ مرة أخرى، إنها ترد فيما وراء كل الطوارئ الاستراتيجية والسياسية على إهانة ١١ سبتمبر وهى تريد أن ترد عليها بإهانة أسوأ أيضًا ـ أسوأ من الموت

بكثير. دون حساب الكاجولات التي هي شكل من أشكال قطع الرأس (التي يتطابق معها على نحو غامض قطع رأس الأمريكي)، دون حساب لتكويم الأجساد والكلاب، العري الإجباري هو في حد ذاته اغتصاب. على هذا النحو رأينا الـ جي آي ينزه العراقيين عراة ومقيدين عبر المدينة، وفي قصة الله أكبر لباتريك دكرك **Patrick Dekaerke**، نرى فرانك، وهو مبعوث المخابرات الأمريكية، يُرْغِمُ العربيَّ على التعري، وعلى أن يلبس رغمًا عنه مشدًا وجرابات نسائية مشبكة لكي يجعله في النهاية يلاط من قبل خنزير، كل ذلك وهو يلتقط صوراً سوف يرسلها إلى قريته وإلى كل أقاربه. هكذا سيتم استئصال الآخر رمزيًا. ههنا نرى أن غاية الحرب لا تتجلى في القتل أو في الانتصار، بل في إلغاء العدو، إلغاء (حسب كانيتتي **Canetti** فيما أظن) نور سمائه .

وفي الواقع، ماذا يُرادُ أن يعترف به هؤلاء الرجال، ما السرّ الذي يُرادُ أن يُسْلَبَ منهم؟ إنه بكل بساطة باسم ماذا وبفضل ماذا لا يخافون الموت. هنا، الغيرة العميقة وانتقام "صفر ميت" من أولئك الذين لا يخافون منه - باسم ذلك سيُرغَمُون على تكبُّدِ ما هو أسوأ من الموت... الوقاحة الجذرية، وعار العري، واغتصاب كل حجاب - إنها مشكلة الشفافية ذاتها على الدوام: انتزاع الحجاب عن النساء أو تغطية رءوس الرجال كي يبدوا أكثر عريًا، وأكثر فحشًا... كل هذه المهزلة التي تتوج عار الحرب - وصولاً إلى هذا التنكر، في هذه الصورة الأشد ضراوة (الأشد ضراوة بالنسبة لأمريكا) لأنها الأكثر شبحية والأكثر "قابلية

للانعكاس"، لهذا السجين المهدد بالإعدام صعقًا بالكهرباء وقد صار كاجولاً بأكمله، وقد صار عضواً فى جمعية الكوكلوكس كلان، المصلوب من قبل أمثاله. هنا، نجد أمريكا حقًا وقد صعقت نفسها بالكهرباء بنفسها.

المؤلف والمترجم فى سطور :

چان بودريار

كاتب وفيلسوف وعالم اجتماع فرنسى. حلل فى العديد من أعماله اختفاء واقع الكائنات والأشياء وعلاقاتها عبر "الإغراء" المعمم الذى يجعل من المجتمع المعاصر عالماً بلا رغبة حقيقية فى وسط انتشار بلا رقابة للمعلومات وللأشياء. من أهم كتبه : **نظام الأشياء** Systèle des objets (1968)؛ **مجتمع الاستهلاك، أساطيره وبناه** La société de la consommation, ses mythes, ses structures (1970)؛ **التبادل الرمزى والموت** L échange symbolique et la mort (1976)؛ **عن الإغراء** De la séduction (1980).

بدرالدين عرودكى

كاتب وناقد سورى يعيش فى باريس منذ أن حصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من جامعة السوربون. يعمل فى معهد العالم العربى (باريس). كتب العديد من الدراسات فى النقد الأدبى وفى سوسيولوچيا الثقافة. كما ترجم عدداً من الكتب، منها : **الفكر العربى فى معركة النهضة** أنور عبد الملك (دار الآداب ١٩٧٤)؛ **معك** لسوزان طه حسين (دار المعارف ١٩٧٥)؛ **نحو علم اجتماع للرواية** - لوسيان جولدمان (دار الحوار ١٩٩٣)؛ فن الرواية - **ميلان كونديرا** (المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١)؛ **العدو الأمريكى**، أصول النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا (المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥).

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف



ابن خلدون

علي مولا




ISBN# 9789774214975
6 221149 017368



٢ جنيه